

من أعلام ..

الفكر والأدب

بقلم : أنور الجندي


أحمد شوقي

لست ادرى هل كان يصل شوقى الى ذروة الكمال الفنى لو لم يتح له أن ينفى ويقضى فى الاندلس خمس سنوات ثم يعود خلقا جديدا وقد بعد عن القصر أو كاد ٠ ومضى يشق طريق العمل الفنى الخالص حتى اذا ارتفع به السن أوفى على قمة المجد بأن ابتدع هـــذا اللون الجديد من الشعر التمثيلى الذى لم يكن معروفا من قبل فى اللغة العربية ٠

والحق ان نفى شوقى هو اخطر حادث فى تاريخ حياته كله ٠ اثر فى مجرى أدبه وفنه وشـخصيته جميعا ٠ وقد أجاب عن ذلك فى الهـلال (عدد نوفمبر ١٩٢٩) قال اذا عزى الى الحرب الكبرى ــ يقصد الاولى ــ كثير من التغييرات والانقلابات فى أنظمة العالم وشئونه الاجتماعية والأدبية فانى أعزو اليها هذا الاثر العظيم الذى أحدثته فى مجرى حياتى ٠ وكان له فضل كبير فيما نلته من مكانة فى الادب ٠ وامتلاك لناصية الشعر العربى ٠

ذلكم انه لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد وانضمت تركيا الى الألمان عمدت انجلترا الى قلب نظام الحكم فى مصر ٠ واعلنت انتهاء حكم الخديو عباس حلمى الثانى ٠ ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به فأمرتنى بالرحيل الى اسبانيا ٠ فجمعت عائلتى ٠ واصطحبت مكتبتى وسائر مرافقى وغادرت مصر الى برشلونة ٠ وهو ثغر على شاطىء البحر الأبيض يشبه مرسيليا فى المدنية ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضارة العربية فى عهـــد الدولة الاندلسية فادخلت أولادى المدارس الراقية ثم عكفت على قراءة كتب الادب العربى فى أوقات النزهة ومشاهدة السينما فاستوعبت منها ما لم أكن قد استوعبت وطالعتها كلها حتى أكاد اقول انه ليس فى الادب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنين التى مكثتها باسبانيا ٠ وقد ساعدنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى ضواحى الآستانة فى رشاقتها ونظامها ٠

فى هذا الجو ، وفى ذاك الوسط الكريم ، نشأت نشأة أخرى فى الادب العربى واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام ٠ وتوفرت على رياضة

الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل ٠٠

ويأتى بعد هذا فى حياة شوقى ذلك التحول العجيب فى فن الشعر نفسه فهذا الشاعر الذى قال فى شبابه نهج البرودة وشعر المديح للرسول سائغا شفافا وكأنما استمده من صوفية عميقة وايمان خاشع ٠ هو الشاعر الذى قال فى سن الستين هذا الشعر الغرامى والوجدانى والعاطفى الرائع ٠ وهو الذى صور حب كليوباترة وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلى ٠ واستطاع أن يصل الى أعماق العاطفة الحنون وهذا الهيام فى الفلوات والبيد ٠

ولعل هذه الظاهرة الغريبة لم تكن موضع عناية كثير من الناقدين أو المؤرخين ٠ وهنا نطرح سؤالا بالغ الاهمية فى حياة شوقى وفنه ٠

هل يمكن أن يكون شوقى قد وصل الى هذا الابداع فى وصف الحب دون أن يكون قد ذاق الحب ٠ ؟ الحق أنه ليس بين أيدينا ذلك الدليل المادى الواضح ٠ وقد ذهب الكثير من النقاد الى أن تصوير شوقى للحب انما هو لون تقليدى لا صلة له بحياته ، ولكنى لا أرى هذا الرأى ، وانما أعتقد موقنا ان شوقى عرف الحب فى صور مختلفة وأتيح له أن يشرب من هذه الكأس وأنه حرم كثيرا وأمده هذا الحرمان بهذه الصور من اللوعة والشوق التى تبدو فى ثنايا شعره الوجدانى ٠ ولعلى لا أبعد عن الحقيقة اذا قلت أن شوقى قد عرف فى الأندلس وجوها تفيض بالجمال ونفوسا تفيض بالحنين الى أصلها العربى ٠

وهنا فى القاهرة فى هذه المغانى التى كان شوقى يغدو اليها ويروح، كم من وجه وسيم وروح نبيل هفا نحو الشاعر الذى كان موضع الاعجاب والتقدير فى كل ندوة أو ناد ٠ وهناك فى باريس حيث قضى الشاعر شطرا من شبابه وعاد اليها مرات ، هل تركته مدينة النور دون أن تأخذ منه خفق القلب ووجيب الضلوع ؟

ان شوقى يسجل فى حديثه عن الأندلس هذه العبارة التى تحمل ألف معنى : « هذا الى أخلاق الأهالى التى تميل الى الأخلاق الشرقية العربية مما جعل بينى وبينهم ألفة حسنة » ٠

أليست الألفة نوعا من الحب ؟ ٠ ويقول الاستاذ حسين شوقى فى مقاله « أبى فى الأندلس » على أثر زيارته للأندلس ٠٠ « وذهبت فى الليل الى (البراللو) وهو حى برشلونة الفنى كالحى اللاتينى فى باريس ٠٠

وكان مشهورا بجوه المرح وكان أبى يذهب هناك أحيانا ، اذ كان يسر للمناظر البوهيمية التى تشاهد فيه » ••

فاذا قيل فى الرد على هذا ماقاله بعض النقاد من أن أول مانلحظه على « مجنون ليلى » الذى صنعه شوقى البرود والركود ، وانه لا تلمح مرة واحدة فى مجنون ليلى تلك الحركة اللاعجة ولا تلك الثورة العاصفة ، قلنا ان « مجنون ليلى » شوقى فيه من عمق الحب قدر ليس بالقليل • ولعل عذر شوقى انه صنع هذه الشخصية بعد الستين • ويكفيه فى هذا السن أن أحيا ثورة الحب على هذه الصورة الرائعة •

ولم يكن من اليسير على شوقى — وهو فى مثل وضعه ومركزه وفى هذه الفترة من التاريخ بالذات — أن يجهر بالحب الا فى صورة قصص مسرحية أو أغنيات لها مناسبتها وطابعها •

ولا يبعد أن يكون شوقى قد أحب مع ارتفاع السن • وهذا النوع من الحب بعيد الاثر ولعله هو الذى دفعه الى أن يغلفه فى صورة قيس وفى صورة انطونيو اذ لم يكن من الميسور له أن يكشف عنه فى صراحة ويجهر به • وقد عرف هذا اللون فيكتور هيجو وجوته • ويقول مؤرخه أحمد محفوظ انه « لم يعرف اللوعة فى الحب قط ، وانما هى رغبات عاطفية كان يستعين عليها بماله ، ثم ينصرف عنها • وكان لا يدخر مالا فى سبيل الوصول الى غاياته ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدله بها • ولا تنكر عليه انه أحب ولكن حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصول » •

وهو فى هذا الميدان أقوى من البارود • وأنفذ فى تصوير العاطفة المشوقة القلقة • وان كان يبدو أن شوقى لم يعرف لوعة الحب أو حرمانه على الصورة العاصفة • ولعل هذا مما يجعلنا نظن أن هذا الحب جاء متأخرا قليلا •

وقصيدة شوقى التى صور فيها انطواء صفحة شبابه كان أبرز مافيها حزنه على الحب :

شيعت أحلامى بطرف باك	ولممت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشـباب ووردِه	أمشى مكانهما على الاشـواك
وبجانبى واه كأن خفوقه	لما تلفت جهشـه المتبـاكى

وتعطى آثار شوقى صورا للعاطفة متناثرة منوعة • وقد غلب فيها جانب التضمين على جانب التصريح ولكن قصيدته التى نظمها فى لبنان

عام ١٩٢٥ لاتحتاج الى دليل فهى صريحة تخفف فيها الشاعر من وقاره. وغلب عليه لون من التحرر غير معهود فى قصائده وهذه أبيات منها :

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل	فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضبانا وأعرض نافرا	حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى الى أترابه	وزعمتهن لبانتى فأثرته
فمشى الى وليس أول جؤذر	وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء سحرا للجفون فصادنى	وأتيت من سحر البيان فصدته

كان شوقى قليل الكلام ، ولم يكن ممن يتصدرون المجالس ٠ بل كان منطويا يوجز القول ويطيل الصمت ٠ وكان من حوله يهابونه ويتكلمون معه فى حذر ٠ ولا يرى شوقى أستاذا له غير اسماعيل صبرى٠ ولم يذكر شاعرا فى اعجاب كما ذكر المتنبى اذ كان يفضله على جميع الشعراء العرب وقد عارضه كما عارض أبا العلاء ٠

ولقد ولد بباب اسماعيل(١) وعاش فى ظل الغنى واليسار ٠ فلم يتصل فى كثير ولا قليل بالشعب ولا بالحياة العامة ٠ وقد شغل شوقى نفسه فى فجر حياته بمديح الملوك والخلفاء ٠ ثم تحول الى مدح الرسول وصاغ فى ذلك قصائد غاية فى الروعة والقوة ، وقد كان ازورار شوقى عن المجتمع واعتزاله وحياته المترفة ، المغمز الذى غمزه به نقاده لانه عجز عن مشاركة الشعب فى آلامه ٠ غير أن شوقى لم يلبث أن خرج عن شعر القصور والمناسبات بعد عودته من المنفى عندما اكتشف شاعريته وآمن بها ٠ ويروى لطفى السيد فى حديث للدكتور طه حسين قوله « كنت القى حافظ أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيرا من شعره فلا يعجبنى فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله شاعرا ولكنه لم يقبل نصحى وحسنا فعل فمازال يكدح حتى أرغم الشعر على أن يعنو له ويصبح شاعرا وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى اقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة واثنى عليه كلما لقيته فمازال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الاخير ٠

قال انطون الجميل « انه لم يشد الى قيثارة الشعر وترا جديدا ولكنه عرف كيف ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة ٠

---

(١) وتوفي في ١٣ من اكتوبر سنة ١٩٣٢ ٠

وأوتار العود معدودة وهي تحت أنامل العازف. وهكذا كانت أوتار القيثارة القديمة في يده تخرج ألحانا مستجدة من كل موضع » .

وقال خليل مطران « ان شوقي لايكد فكره في معنى أو مبنى وكثيرا مايعارض المتقدمين ولا يعسر عليه أن يبزهم . وشعره هو شعر التفوق والعبقرية » .

وقد وصف النقاد طبيعة شوقي بأنها طبيعة معقدة وردوا ذلك الى أن فيها من الترك واليونان والشركس (١) وأن كل هذه الآثار وما فيها من طبائع اصطلحت على تكوين نفس شوقي . هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة . وهي بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع مايكون الغنى ..

وأجمع النقاد على وصفه بأنه أعظم شاعر في العربية بعد أبي الطيب المتنبي .

وقال عبد العزيز البشري في وصفه بأنه مفرط في حب نفسه .. شديد الولع بها مفرط في حب بنيه .. شديد الولع بهم . وانه بعد ذلك شديد الرقة للناس جميعا أضعفه الحب وقل من عزمه فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما ولا يستطيع أن يسمع قصيدة حزينة . ولو قد عرض لسمعه أو لبصره شيء من هذا لولى منه فرارا ولملىء منه رعبا . وهو ولوع بنفسه هيوب من أن يعتريها الأيام بمكروه .

وقد كان شوقي يجود بشعر الحكمة يطلقه على سجيته دون تفكير ، وعلى ماكان عليه من بلاغة القصيد ، لم يكن يلقي شعره أو يجيد الحديث في مجالسه فكان قليل الكلام كثير الاطراق ، وغلبت عليه النزعة الدينية القدرية وبدأ حبه لآل البيت واضحا في قصيدته ، كما بدت عاطفته للشرق والاسلام والعروبة ظاهرة في اثارة ، حتى كان شعره في سوريا وقودا للثورة السورية بشهادة السوريين أنفسهم .

وقد وصف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص طريقة نظمه للشعر فقال : « لقد لازمته في ليلة في بوفيه « دي لابرد » على كوبرى قصر النيل وكان ذلك قبل الحرب فشرع يعمل في قصيدة النيل التي مطلعها :

من أي عهد في القرى تتدفق   وبأي كف في المدائن تغدق

---

(١) طه حسين .

وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيل ويسير فى الجزيرة بضع دقائق ثم يعود الى المنضدة التى كان يجلس عليها فيكتب عشرة أو اثنى عشر بيتا · وهكذا انتهت القصيدة فى ليلة الا بيتا استعصى عليه ولم يتمكن منه الا بعد يومين ·

« ··· وكان اذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب اليه عملها ، ولم يتذكرها الا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ، ابتسم وطلب أن يتناول صفار ثلاث من البيض التى يشربها نيئة · ثم يبدأ فى النظم فلا تمضى ساعة حتى يتم القصيدة (١) ·

وكان يملى فى رواياته الأربع : قمبيز وعلى بك والبخيلة وهدى فى وقت واحد ويشهد الدكتور طه حسين بأن شوقى أدخل فى اللغة العربية وفى الشعر العربى خاصة بهذه الروايات فنا جديدا لم يسبقه أحد اليه وهو فن التمثيل الشعرى ·

خرج شوقى من القفص الذهبى عندما قال قصيدته التى نفى من أجلها ·· ولم يعد اليه مرة أخرى ولعل قصائد شوقى عن المنفى هى أصدق قصائده تصويرا لاحساسه ومن أدقها قوله :

أحـرام على بلابله الـدوح	حلال للطـير من كل جنس
كل دار أحق بالاهل الا	فى خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شـغلت بالخلد عنه	نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

أضف الى ذلك قطعته النثرية عن قنال السويس فهى فيض نفس ملئت بالاسى والحزن والشعور بالظلم ·

وقد سبق شوقى اترابه حافظ والبارودى بالشعر الغنائى والمسرحى الذى تفرغ له فى آخر أيامه ·

ويلتقى شوقى مع البارودى فى الاتجاه الروحى فكلاهما قد نظم بردة البوصيرى وصور عاطفته فى حب الرسول ·

وكان حافظ وشوقى فرسى رهان · فقد ظلا يتصارعان حياتهما حتى اذا جاء الموت ، قضيا فى عام ١٩٣٢ الذى غيب الشاعرين فى التراب ·

---

(١) وصفه أحد أصدقائه بأنه كان يفيض في شأن من يجلسون معه « حتى نحسبه أحدنا ثم ينقطع كل هذا فجأة ويرجع الى نفسه فيصبح ليس معنا فهناك تسمع غمغمة كلها آتية من غور بعيد ثم لايزال بعد ذلك يمسح على جبينه بيده ثم يهب واقفا ويتركنا من غير أن يبتسم أو يسلم ·

وكان حافظ يحس بقوة شوقى وعظمته فيذعن ويبايع له فى مهرجان (٢٩ ابريل ١٩٢٧) :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفودالشرق قد بايعت معى

فلما توفى حافظ فى حياة شوقى نعاه على هذا الاسلوب من الايثار:

قد كنت أوثر أن تقـول رثائى يا منصف المـوتى من الاحياء

واتصل شوقى وهو فى المنفى بحافظ يقول :

يا ساكنى مصر انا لا نزال على عهـد الوفاء وان غبنا مقيمينا

فرد عليه حافظ يقول :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

... وكانا مع ذلك مختلفين أبعد اختلاف ، كان منهجهما متباينا ، أما حافظ فكان أول أمره قويا غاية القوة ، كان شاعر الشعب والمجتمع . ولما عاد شوقى من منفاه تحول ومضى يخطو فى قوة ويقفز ، حيث بقى حافظ جامدا ، والتهم شوقى فى منفاه كل آثار العرب ولم يدع كتابا لم يقرأه ، فاضاف ذلك الى شخصيته الادبية قوة عارمة ، فى الوقت الذى كان حافظ يقضى لياليه سميرا يتوسط المجالس وينثر الفكاهات والأحاديث ، وبيته لا مكتبه ليس فيه الا بضعة أجزاء من الأغانى ، وان ظل حافظ يبهر الناس بطريقة القائه يضيف الى معانيه قوة وروعة بصـوته الملىء ونبراته الجهيرة .

يقول المازنى (وأنا اعتقد ان شوقى مدين لخليل مطران بأكثر مما يعرفه الناس ـ ولا سيما فى صدر حياته ـ فان خليل مطران هو أول من أدخل شيئا من التجديد على الشعر فى مصر وتبعه شوقى حينا) وروى طاهر الطناحى ان « حافظ » قال فى بعض مجالسه « والله شوقى لشاعر وانه لأشعر منى ، اقررت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى . ولا اريد ان اكفر بها فى شيخوختى » .

وقد وصفه الموسـيقار محمد عبـد الوهاب بانه كان مرهف الحس لدرجة انه يشعر بالكوارث قبل وقوعها فيداخله الخوف ، فمثلا كان لا يعبر طريقا الا اذا كانت السيارات القادمة تبعد بمسافة كبيرة ، وكان أيضـا يخاف الناس فاذا اندفع اليه شخص ارتعش واضطرب ، ويضاف الى هذا ان شوقى كان يحب الحياة حبا جما ويكره الموت ويخافه .

وبعد فقد كان شوقى يغار على شعره ويكره النقد وينفر منه وله فى ذلك قصص ويبدو ان هذه كانت طبيعته ٠

وقد حمل عليه العقـاد والمازنى وطه حسـين ٠ ثم تحول المازنى وطه عن رأيهما وبقى العقاد على رأيه ٠ وهاجم هيكل شوقى بعد ان كتب مقدمة الشوقيات وهو بهذا الهجوم قد تحول عن رأيه الذى اعلنه فى المقدمة ٠

وغاية القول أن شوقى جمع فى شعره بين النواسى والمتنبى على فترات حياته ، الأول فى شبابه والثانى فى شيخوخته ، محاولا أن يكون شاعر الحكمة وشاعر الحب والجمال ولكنه مع ذلك كان نسيجا وحده يمثل عصره وشخصيته ٠

ولقد أتيح لشوقى بعد وفاته أن يمعن فى السير قدما فى طريق الخلود بعد أن جرى مجرى الغناء وانتقل الى الالسنة التى لم يكن من اليسير ان تطالعه أو تلم به فى دواوينه ٠

وقد اكسب هذا شـوقى بعد أن أمعن فى طريقه الى جوار الله ، بريقا ولمعانا أضفيا على فنه قوة جديدة ومهدا له سبيل الخلود على نحو لم يكن ميسورا فى حياة الشـاعر ٠



حافظ إبراهيم

الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط ، وعاش حياته أعزب منطويا على نفسه فى دار الكتب عشرين عاما بعد ان عاد من السودان ، كان خلالها مقيدا بقيود الوظيفة لا يستطيع ان يقول أى شىء ·

نشأ فى بيئة شعبية ، ومات والده صغيرا ، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصة ردحا من حياته ·

عاش «١» حياة الناس واضطراب فى بيئاتهم وخبر آلامهم وأحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم ·

ولد وفى نفسه تلك الجذوة الشاعرية الملهمة الفياضة ولكنها ظلت خافتة نائمة لانه لم يكن قد آن وقت ثورتها ، واغلب الظن ان حافظ قد حبس لها وجمع ما صادفه من الوان التأمل والدرس فى أناة واصطبار ·

وظل هذا الشاعر الصامت ينازع نفسه غايات الحياة وأسباب المجد وينفر من السودان والحرب والجيش ، ويود لو تهيأ له ان يعود الى مصر · وهو فى حنانه وشوقه وانزعاجه وثورته انما كان يرسم الخطوات الاولى نحو ذلك المجد ·

وقد اتصل حافظ فى حياته برجلين كانا من كبار الرجال فى عصره هما محمد عبده وسعد زغلول ·

واستمرت صلته بالشيخ عبده طويلا ، وكان قد كتب اليه من السودان يطلب منه ان ينقل الى القاهرة بعد ان ضاق بالغربة ، ثم ظل متصلا به اربعين عاما ، وقد اثر عن الشيخ عبده قوله « اننى صحبت « حافظ » أربعين عاما فلم أستطع أن أهديه ولم يستطع أن يضلنى » ·

ومعنى هذا ان حافظ على صلته القوية بالشيخ عبده لم يتأثر به ولم يستفد منه وفى حياة حافظ عقدة غير واضحة لم تستكشف بعد ، فقد كان نواسيا الى أبعد حد وقد حوى ديوانه بعض قصيده فى مناجاة

---

(١) جريدة القاهرة ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ عن مقال مؤلف ·

الغلمة والخمر ٠ وقيل انه تزوج ثم طلق بعد اربعين يوما وعاش بعد ذلك أعزب ما بقى فى حياته ٠

فاذا اردنا ان نعرف أثر المرأة فى أدبه وفى حياته شق علينا ذلك ولم نجد السبيل اليه الا فى بعض أبيات كان يفتتح بها قصيدة وفق ذلك الأسلوب التقليدى فى الاستهلال بالنسيب ٠

ويعد هذا الجانب من أغمض الجوانب فى حياته ، ولم يتناوله أحد من الذين كتبوا عنه ولم يلق عليه أى ضوء حتى ليمكن القول بأن حافظ كان بعيدا عن محيط المرأة وانه لم يعرف الحب ولا هذا اللون من العاطفة ، ولعل مرجع هذا الضيق والبؤس واضطراب الاعصاب يكون نتيجة لهذا الازورار عن هذا المعين الروحى الفياض ٠

وقد وصفه عبد العزيز البشرى بانه خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث حاضر البديهة رائع النكتة ٠ اذا كتب لك يوما ان تشهد مجلسه اخذك عن نفســك حتى ليخيل اليك أنك فى بســتان تقطعت جداوله ، وهتفت على أغصــانه بلابله ٠

« وهو اجود من الريح المرسلة ، ولو انه ادخر قسطا مما اصابت يده من الاموال لكان اليوم من أهل الثراء على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الالف جن جنونه أو ينفضها فى يوم اذا استطاع ٠٠ ثم هو ما برح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا ٠٠ » ٠

« وهو عنيف الطعن قليل الصبر سريع الغضب ، له صوت جهير ضخم ، رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات ٠٠ » ٠

ويرى خليل مطران أن حافظ « يجيد الرواية من قصائد العرب واذا فاته الابتكار فى المعنى فانه لا يفوته فى التصوير ، وهو مؤثر فى شعره السهل الممتع ، وقد اتخذ أسلوبا جعل الشعر قريبا الى أذهان الجمهور وأذواقه وشعره هو شعر البيان الناصع » ٠

وقد وصف نفسه بقوله « هناك عوامل تجعلنى اجيد الشعر وهى أن اكون فى حالة من الشجن تجاوز الحزن أو اكون متعجلا مضطرا ، أو أكون فى أرق ، اما الصفاء والانس والفرح والسير فى الرياض وعند الماء والشجر فيحدث فى نفسى حالات لا تواتينى على النظم ، فأنا لا أجيد القصائد فى التهانى نفسها الا وأنا حزين ، وانى أؤمن بأن لكل شــاعر

شيطانا لأنى أكاد أسمعه يهمس فى أذنى المعنى وأحيانا ينصرف فيغلق على ، وأنا اقيد همساته ، بيت اكتبه فى القهوة وآخر اكتبه وانا بالقطار وآخر وأنا احادث الاصحاب واكبر عوامل الافساد للشعر ان يطلب منا الشــعر » ٠

وأحب قصائده اليه غادة اليابان وقصيدة اوجبنى وذلك لسهولتهما « لأن السهولة عندى مبدأ من مبادىء الشعر وكثيرا ما يخطر الى المعنى الجليل فأتركه لأن الألفاظ لا تواتينى » ٠

وكان يردد امنية غالية اذا هيىء له العمر ، ان يحذف من ديوانه الشعر التجارى فهو كان يعترف بأن فى شعره جانب غث يجب أن يطويه عن الناس ٠

وكان أفضل الشـــعراء عنـــده أبو نواس ثم البحترى وأبو تمام « ولست أحب المتنبى ولكن احترمه وآخذ البحترى بالحضـــن ، وأحب الجاحظ وأحب الأغانى ٠ » وقد حفظ فى شبابه قصة عنترة التى يرويها شاعر الربابة ، ولحافظ قصيدة فى ثلثمـــائة بيت أنشأها فى هجـــاء اسماعيل صدقى وعهده لم يعثر عليها كاملة ٠

ويلتقى البارودى مع حافظ فكلاهما دخل المدرسة الحربية وانتضى السيف وأحب الشعر وأوغل فيه ، غير أن البارودى اشتغل بالحرب فكان جنديا شجاعا عاملا ، وظل كذلك الى آخر حياته ٠ اما حافظ فقد هجر الجندية بعد وقت قصـــير وآثر عليها حياة الموظفين فى نوادى القـــاهرة وسهرات قهوة متاتيا مع نرجيلته ٠٠ وهو يرسل حديثه ونكاته مع عبد الحليم المصرى وامام العبد وعبد العزيز البشرى ٠

ويختلف البارودى عن حافظ فى أنه اشـــتغل بالســـياسة وكان معروفا بالدهاء ٠ كما اشـــترك فى الوزارة وشـــهد ثورة عرابى وهو القائل :

وانى امرؤ لولا العوائق اذعنت	لســلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم	لها فى حواشى كل داجيــة فجــر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه	تفزعت الافلاك والتفت الدهــر

وهما متفقان بعد ذلك فى ايثار الجزالة والاعجاب بالعبارة والعناية بالصياغة ٠ وحافظ كان ملول الطبع مشتت الأوزان والقصائد ويغلب ان مصدر ثقافته هى تجاربه فى الحياة ودراساته وتأملاته ٠

وقد كان يشعر بالغربة وهو على ضفاف النيل ٠

أيها النيل كيف نمشى عطاشا فى بلاد رويت فيها الاناما
يرد الواغل الغـريب فيروى وبنوك الكـرام تشـكو الاواما
ان لين الطبـــاع أورثنا الذل وأغرى بنـا الجفـاة الطغـاما

وقال فى أكثر من موضع يصف هذا اللون من البؤس القائم الذى يلم بنفسه بين حين وحين ولعل مصدره انصرافه عن الحياة الوجدانية فى محيط الحب والمرأة ٠

والليل ارشده ابوه لشقوتى وكـــذا البنون على هوى الآباء

ويلتقى حافظ مع مطران الذى كان المجدد الاول فى الشعر العربى الحديث وهو الذى دفع حافظ وشوقى الى التحول والتطور ٠٠ يلتقى حافظ معه فى أنه لم يتزوج ، ولكنه التقاء فى المظهر لا فى اللب ، لقد امسك مطران عن الزواج مخلصا لذكرى حب كان حب حياته كلها ومصدر الهامه فى شعره ، وقد ماتت صاحبته وهى عذراء ولم يعرف قلبها حب انسان غيره ، فقد صدم فى آماله وحبه فى أوائل العقد الرابع من عمره ٠

ويخيل اليك عندما تراه انه ادرك جميع حقائق الحياة فاستوى عنده حلوها ومرها ٠ وهو يلتمس اعذار المخطئين قبل حسابهم عليها ، يغضى عن الاساءة ويتناسى الهفوات ولا ينسى صديقه وان طال بينهما الفراق ٠

ويقول مطران : « اننى انظر الى العالم على أنه مسرح يتداول الممثلون الظهور فيه فأنا أشد كل ممثل ، واسمع كل ما يقال ، على أن استخلص من ذلك ما لاح لى من العبرة والاسوة ٠

ولقد أحب هذا الرجل النحيـل الضـامر حبا واحدا مدى عشرين عاما كاملة :

أحبـك حتى لا سرور ولا منى ولا شمس الا أن أراك ولا نجما
احبك حتى ينكر الحب رسله جيلاوقيسا والذين استشهدوا قدما
ولو لم تكن فى الموت سلوى أخافها لا حببت حتى الموت فيك ولو ذما

وقصيدة منديل الحبيبة تكشف عن هذه العاطفة الحارة :

اعد أيهـا المنديل ذكرا محببـا وانطق به الطيب الذى فيك مطربا
فما بك من نشر ففى القلب مثله طواه الهوى قدما وما زال طيبا
وكم عرضت لى غانيات فعفتهـــا وصنت ضميرى واللســان المشيبا

وأمنية مطران : الحيـاة الى الساعة الاخيرة من العمل والمـوت متى جاءت ساعته بلا وجل ٠

وهو عند طه حسين زعيم الشعر العربى المعاصر ، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين لايستثنى منهم واحدا ولا يفرق بين المقلدين والمجددين ، وانه حمى حافظ من أن يسرف فى المحافظة وشوقى من أن يسرف فى التجديد ٠

وصف مطران دوره فى التجديد (الهـلال ـ نوفمبر ١٩٣٣) « أردت التجديد فى الشعر منذ نعومة أظفارى ٠ ولقيت دونه مالقيت من عنف ومناوأه ، وليس هنا محل وصف الآلام التى عانيتهـا للبواعث التى انبعثت منها نوازع الذين حاولوا السبيل بضع سنين ٠

« ٠٠٠ وعدت الى الشعر وقد انضج الفكر لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى متابعا عرب الجاهلية فى مراعاة الوجدان على مشتهاه موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب ٠ لا أخشى استخدامها احيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب ٠٠ وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعـــدم التفريط فى شىء منها » ٠٠ وقال مطران فى حديث له(١) انه عزم على مفارقة الشعر اذا لم يتهيأ له فيه مذهب جديد ٠ وظل يجاهد حتى تحقق له ذلك ٠

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الآثار الغربية فترجم حافظ البؤساء وترجم مطران روايات شكسبير ٠

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشـــوقى ومطران وقد جمعهم الزمن فى جيل واحد ٠ كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه الشعرى ومعالمه النفسية الواضحة ٠

ان مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فقد كان حبه واضحا واتصاله بالمرأة بارزا فى صورة قوية رائعة ٠

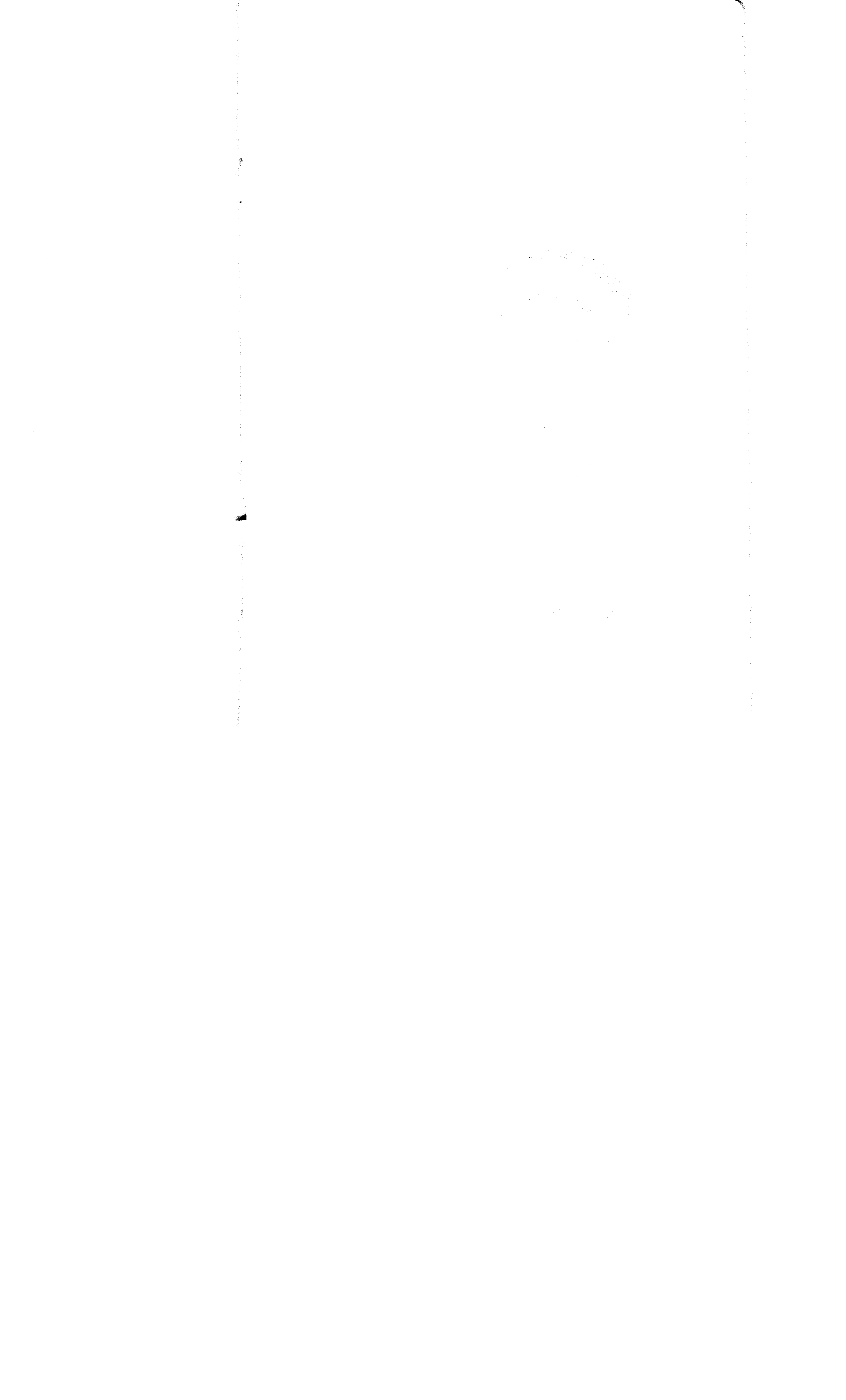
وعاش حافظ بعيدا عن هذا الميدان يطوى أيامه وفى نفسه ذلك البؤس الذى ما أظن ان مصدره الا خلو حياته من المرأة التى كان يعزف عنهـــا ٠

---

(١) مجلة كل شىء : ٨ من ديسمبر ١٩٢٩ ٠



مصطفى لطفي المنفلوطي



لا شك ان كبار « الرواد » الذين أقاموا صرح الادب العربى المعاصر قد فتحوا عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب ·

هذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن ، حتى كان الثالوث « طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود زناتى » يترتب المؤيد كل خميس ليقرأ له فى اعجاب ·

أشرق(١) أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد اشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الادب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الادباء رنين النغم ، ورأى القراء الادباء فى هذا الفن الجديد مالم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة ، وركاكة الترجمة فاقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد الوحيد العذب ويبدو المنفلوطى فى رسائله وقصصه فى صورة قاتمة حزينة فهو قادر على أن يرسم صورة الالم الممض ، فيحول الاجواء كلها الى عواصف ودموع وآلام وبكاء ونواح·

ولا يزال أدب المنفلوطى ـ بعد أربعين عاما ـ قويا حيا يبعث فى النفس آثاره دون أن تقضى عليه الالوان الجديدة التى جاءت بعده وان لم يكن أدب القوة الا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من القوة والجرأة الحاسمة ·

بدأ حياته الأدبية سنة ١٩٠٧ ناثرا وكاتبا ، وان كان قد سبق فنظم الشعر وكانت له من بعد قصائد شهر فيها بالاحتلال وسجن من أجلها ، وكان هذا الاتجاه الشعرى الباكر مصدر تلك الثروة اللفظية ، واللون الوجدانى فى نثره ·

والمنفلوطى من المنشئين الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء انتاجهم، فهو ليس من الكتاب العقليين أو أصحاب المذاهب الفكرية بقدر ما هو من كتاب المعانى التى تتصل بالحب والحرمان والالم والبؤس ·

وان كان قد أخفق فى دراسته الازهرية فقد فتح له ذلك ـ شأن

---

(١) أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة جـ ١ ·

من كانوا على شاكلته ـ بابا لقراءة متصلة واسعة فى الادب العربى القديم وروائع الشعر والنثر مما أتاح له أن يكون مجددا فى الأدب ٠ وان يبدأ فجر النهضة الأدبية بهذا اللون الذى لم يسبقه أحد به من قبل ٠

ومهما يكن من رأى بعض كتابنا فى المنفلوطى (١) فان أثر أسلوب المنفلوطى يبدو واضحا فى كتابات الرافعى وطه حسين والزيات وعبدالعزيز البشرى ، وقد استطاع المنفلوطى أن يظفر من ناقديه بأنه (٢) أحد أولئك الادباء القلائل الذين ادخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى ٠

غير ان المنفلوطى وان جدد فى أسلوب التعبير ، الا أنه ظل محافظا فى ميدان المعانى فقد تمسك بالقديم وحمل على قاسم أمين وكان يعلن أنه لايثق بالاطباء وأنهم لا يغنون عن القدر ولا يرفعون نازلة القضاء ٠

فاذا أردنا أن نصل الى جوهر نفسه أمكننا أن نعتمد فى ذلك على مصدرين كانا وثيقى الاتصال به ٠ أما أحدهما فهو الزيات « ٠٠ كان صحيح الفهم فى بطء سليم الفكر فى جهد ، دقيقا فى سكوت ، هيوب اللسان فى تحفظ ، ولذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه الى احتشام التربية التقليدية فى الاسرة ونظام التعليم الصامت فى الأزهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس » ٠

أما الجارم فيصفه قريبا من هذا حيث يقول « ٠٠٠ كثير الحفظ والرواية سريع الخاطر ، دقيق الحس ، نبيل العاطفة ، جذابا الى أقصى حدود الجاذبية جم الادب ، كان الحياء أبرز صفاته فلم تكن تتفتح نفسه وتبدو على سجيتها الا بعد معاشرة ومخالطة ، وهو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ويجيد تصوير معناه » ٠

واتصل المنفلوطى بالشيخ على يوسف ٠٠ وكتب بالمؤيد ، فصول النظرات التى اشتهر بها ، واذاعت اسمه فى كل مكان ٠٠ وابتدع بها هذا الفن الجديد فى الكتابة العربية الجذلة السهلة الرائعة ٠

واتصل بسعد زغلول ودافع عن مذهبه السياسى وكان صديقا لحافظ ابراهيم وامام العبد وأحمد نسيم وأحمد فؤاد ٠٠ يساهرهم فى قهوة أفندية ٠ ولم يسلم المنفلوطى من متاعب الخصومة السياسية ، فقد هاجم فى فصول النظرات عبد العزيز جاويش فى مقال « طبقات الكتاب » اذ كان جاويش خصما للمؤيد ولسعد ٠

---

(١) العقاد فى مراجعات فى الادب والحياة ٠
(٢) المصدر نفسه ٠

ولعل مما يذكر هنا ان طه حسين كان قد افتتح حياته الادبية بالهجوم على المنفلوطى ينقد « النظرات » ثم عاد فصحح رأيه فيه عام ١٩٤٩ ، ويرى طه حسين فى هذا أنه تحول من أسلوب النقد الى أسلوب آخر فقد كان حريصا فى مطلع الشباب على النقد الذى يتصل بالالفاظ والعبارات ٠٠ ثم اتجه الى النقد الموضوعى بعد أن ارتفعت به السن ٠

كما اتصل المنفلوطى بالشيخ محمد عبده ٠ وقال فيه شعرا ٠ وترجمت له بعض القصص الاوربية ، فصاغها فى أسلوبه العربى البليغ ، فجـاءت آية من آيات الابداع ٠ من ذا الذى ينسى « ماجـدولين » ٠٠ « والعبرات » ٠ وذلك الطابع الحزين الذى يغشى صحائفها ٠٠ والحق أن آثار المنفلوطى تكشف عن نفسية تغلب عليها « العاطفة الحزينة » ٠٠٠ وهو يصف نفسه عند مابلغ الاربعين ٠

« ٠٠ الآن وصلت الى قمة هرم الحياة والآن بدأت أنحدر الى جانبه الآخر ٠ ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل الى السفح بسلام أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى الى المصرع الاخير هويا ٠

سلام عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحا للآمال والاحلام وكنا نطير فى أجوائك البديعة الطليقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء فى آفاق السماء ٠٠ لانشكو ولا نتألم ٠ ولا نضجر ولا نسأم ٠

٠٠٠ وما أنا بآسف على الموت يوم يأتينى ٠ فالموت غاية كل حى ٠ ولكنى أرى أمامى عالما مجهولا ٠ لا أعلم مايكون حظى منه ٠ وأترك ورائى أطفالا صغارا » (١) ٠

٠٠٠ ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى « أما من ورائى فالله يتولى السائمة فى مرتعها ٠ والقطا فى أفحوصتها ٠ والعصفور فى عشه ٠ والفرخ فى وكره ٠

وداعا أيها الشـاب فقد ودعت بوداعك الحياة ٠ وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر » ٠٠

هذه المعانى تعطى صورة الرجل المحب للحياة ٠ المشفق من الموت ، الذى يستقبل الغيب على نحو من الخوف والتوجس ٠

وتبدو صورة المنفلوطى وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويحرص

---

(١) النظرات (الاربعون) ٠

على المتاع بها فى هذا الخطاب الذى أرسله الى « الموسيقار » حسن أنور بعد عودته من رأس البر ٠٠٠ « وصلت الى مصر وقد شعرت عند وصولى اليها بشيء من الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عند القـاء القبض عليه واعادته اليه ، وسأظل زمنا طويلا متمثلا فى ذهنى جمال تلك الأيام التى تمتعت فيهـا بنعمة الحرية والطلاقة ــ لا يقيدنى مقيد ولا يسيطر على مسيطر من النظم والتقاليد أجلس فى كل أرض وأفيء الى كل ظل وأسير تحت كل سماء ، وأتحدث بكل ما يجول بخاطرى من جد وهزل ، وصواب وهذيان ، كأننى أعيش فى عزلة منقطعة لا تقطع على فيها عين ، ولا يطرق سمعى صوت ، كما لا أنسى ما حييت جمال ذلك المصيف البديع ومناظر كثبانه ورماله وسمائه ، وبره وبحره ومواقع غزلانه ومرابع جآذره ، ومنظر لسانه العذب الرطيب وهو ممتد ساعة الاصيل فى غمار الماء ينهل منه النهلات الباردات ٠

فليت ذلك دام لى ٠ ولكنه لايدوم ، لان السعادة فى هذه الحياة بوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى (١) » ٠

هذه صورة نفسية للمنفلوطى فيها صراحة ووضوح بعيدة عن التكلف الذى تفرضه كتابات الصحف ، وهى أيضا تعطى صورة لأسلوب المنفلوطى حين يكتب لأصدقائه ، ويرسل نفسه على طبيعتها يصـور المعانى التى تزدحم بها نفسه ، هذه النفس المحبة للحياة ، الحريصة على المتاع واللذة، الخائفة المتوجسة فى الوقت نفسه من نهـاية السعادة حين يرى أنها ليست الا بوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى ٠

وبعد فالمنفلوطى يأخذ مكانه هنا لانه علم على رأس مرحلة من مراحل الانشاء الادبى وعلى رأس « طريقه » فى الادب وأسلوب التعبير ومدرسة فى البؤس والحزن والحرمان ٠ والارجح أن يكون مرجع هذه الوجدانية التى نراها فى « ماجدولين » و « الشاعر » الى أشواق نفسية فى أعماق الكاتب نفسه وجدت مكان الافضاء عنها فى تلك الصور الشعرية التى رسمها بقلمه بعد أن ترجمت له ٠

ليس من شك ان المنفلوطى شاعر النفس ، وانه أحب وهذا هو سر قوته الوجدانية ويبدو أن المنفلوطى لم يجد فى مقدوره الكشف عن صور حبه فى صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة ، وجملة القول فيه

---

(١) الهلال ــ مارس ١٩٣١ ٠

انه أديب الآلام والحزن والحرمان يصورها بأسلوبه البليغ فتجد لها فى كل نفس صدى وفى كل قلب أثر ٠

خرج المنفلوطى عن الاسلوب التقليدى ، فادخل الى الادب المعانى والصور بعد أن كان الزخرف هو كل شيء ، فهو مرحلة بين المويلحى من ناحية وبين الزيات والرافعى من ناحية أخرى ٠ وهو وان كان قد عاصر المدرسة المهجرية الا أنه تحرر منها وظل محتفظا بطابعه الخاص ٠

وهو يحرص احيانا على أن يكون ضخما فخما فى اسلوبه وقاسيا مؤثرا فى معانيه ، يبعث الالم والحزن ، حتى لتضيق به احيانا ، ولا تحتمل قسوته حين يصل بأبطاله الى أبعد حدود الآلام المتخيلة ، فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والعرى والحرمان ، وهو الى ذلك كاتب وطنى واجه الانجليز بقلمه فى عنف ومقاله فى الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الخديو معروفة ٠



أحمد أمين

يمثل « أحمد أمين » مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الادب المعاصر في مصر ، فهو الأزهري الذي تخرج في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي وانتقل من القضاء الى التدريس في الجامعة ، ثم انتقل الى حياة التأليف والكتابة ، وتعلم اللغة الانجليزية بعد أن ارتفعت سنه ، وترجم منها ٠

واستبدل العمامة بالطربوش ٠ وسافر الى أوربا والى الشرق وظل مع ذلك « الانسان » المحافظ في آرائه وأفكاره وحياته ٠ والمنطوي على نفسه ٠٠

لم يتصل أحمد أمين بالحياة ٠٠ ولم يجر في تياراتها المختلفة بل ظل يعيش في حياة الكتاب والمفكرين وأعمالهم ، ومن ثم كان لاسلوبه ذلك الطـابع الجاف ، الذي ليس له سمت خاص يتميز به ، وخـــلا أدبه من العاطفة والوجدان ، كما خلا من تلك الروح الفنية الجذابة التي تهز النفس وتأخذ اللب والتي نجدها عند أزهريين آخرين كطه حسين والزيات وزكي مبـــارك ٠

٠٠٠ ويرجع هذا كله الى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين ، وهو الى العلماء أقرب منه الى الادباء ، ويرجع هذا الاتجاه الى الدراســـــات والدوافع الاولى ٠

فقد نشأ أحمد أمين في بيئة محافظة دينية كان لها أثرها في نشأته، وكانت التربية الازهرية بعيدة الأثر في أهدافه واتجاهاته ، فلما أراد أن يندمج في الحياة الجديدة اندمج فيها على طبيعتـــه وبكل مقوماته لم يدع منها شيئا ، ولم يستطع أن يتحول أو ينتقل على الطريقة التي تحول اليها طه أو مبارك أو على طـريقة الزيات ومصطفى عبـــد الرازق فهؤلاء يختلفون عنه لانهم سافروا الى أوربا وأمضوا مراحل دراسة طويلة هناك٠

وانما ظل هو ، كما هو « النفس المنطوية » التي تزهد في الناس ، وتجنح الى العزلة وتعكف على المطالعة والبحث والدراسة ٠

صحيح ان هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج انتاجا عقليا

غاية فى القوة والوفرة ، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا ، فاذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة ، غلبت عليه الافكار المثالية وجعلته غريبا عن المجتمع الى حد ما .

ويغنينا أحمد أمين فى تصوير اعتزاله للمجتمع حيث يقول «... لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذى نشعر به خجل قبيح ، وضعف فى الحرية الشخصية وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد فى متعتها ، وعدم تفتح النفس لمسراتها ، وكان أبى يكثر من ذكر « الموت » وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لونا من الحزن والقناعة فى طلب المجد ، ولكن بجانب هذا الجد فى الحياة والصبر على المكاره والترفع عن صغائر أمور الدنيا لان كبارها قليلة القيمة .. »

ليس فى أدب أحمد أمين شبح للمرأة على الاطلاق ، وعلى أية صورة من الصور حتى ليخيل للباحث انها لم تؤثر فيه مطلقا، وقد ظل يتحاشاها حتى التقى بالانجليزية التى علمته اللغة .

« .. وعشقت (١) مرة مدرسة لى انجليزية ، كنت أتبادل معها الدروس العربية والانجليزية ، وأحببتها حبا يائسا لانها كانت متزوجة، سعيدة بزواجها ولكن جمالها وجمال عينيها . جعلنى أتمنى يوم درسها وأعده عيدا ، ولولا أن الدين والعلم كبلانى لكنت أمام المحبين .

رأتنى شابا فى السابعة والعشرين ، أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشى فى جلال ووقار وأتزمت فى حياتى . فلاموسيقى ولا تمثيل ولا شيئاحتى من اللهو البرىء وأصرف حياتى بين دروس احضرها ، ودروس ألقيها ، ولغة أتعلمها . ورأتنى مكتئب النفس منقبض الصدر ينطوى قلبى على حزن عميق ، ورأتنى لا أبتهج بالحياة ولا ينفتح صدرى للسرور فوضعت لى مبدأ هو « تذكر أنك شاب » تقوله فى كل مناسبة وتذكرنى به من حين الى حين .

والثانى أنها رأت لى عينا مغمضة ، لا تلتفت الى جمال زهرة ولا جمال انسجام وترتيب . فوضعت لى المبدأ الآخر « يجب أن تكون لك عين فنية .. » فكنت اذا دخلت عليها فى حجرتها ، وبدأت آخذ الدرس وأتكلم فى موضوعه صاحت فى « ألم تر فى الحجرة أزهارا جميلة تلفت نظرك ، وتثير اعجابك فتتحدث عنها ؟ » .

ويقول أحمد أمين انه لازمها أربع سنوات واستفاد من عقلها وفنها

---

(١) كتاب حياتى .

ثم يعقب على ذلك « ... ولكننى لا أظن اننى استفدت كثيرا من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائما أننى شاب » .

ثم تزوج أحمد أمين وظل على طابعه المنفرد . ذلك الطابع الذى يتمثل فى الوحدة وفى الحياة بين الاسفار ، وقد أنكر أهله منه هذا ، ولكنهم قنعوا به أخيرا ... « ... وقد صدمت زوجتى بعد قليل اذ رأتنى هادئا غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت فى بيت مرح .. فظنت انى لا أقدرها، وانى نادم على الزواج بها ، وأكدت لها أن هذا طبعى كسبته من بيئتى فلم تصدق ولم تطمئن الا بعد طول العشرة ووثوقها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها . »

« وهى تحتمل الصباح وحدها لاعداد ما نأكل ، وتنظيف ما ينظف .. ولكن كيف تحتمل المساء أيضا وحدها . وأنا فى غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والايام هى الايام الاولى لزواجنا ! »

ولعل هذه الاضواء على الحياة الاجتماعية لاحمد أمين تعطينا مفاتيح أدبه .. وترسم لنا صورة « مالك الحزين » التى رسمها له الاستاذ طاهر الطناحى حين وصفه بأنه يضع على عينيه منظارا أسود .

يقول الاستاذ أحمد أمين فى تصوير نفسيته « رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان ، سواء كان جمالا طبيعيا ، أو جمالا صناعيا ، أو جمالا فنيا ، ولى حاسة قوية فى سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة » .

« أحب الخير للناس وافرح لنجاحهم ورقيهم ، ولكنى مع هذا الحب غيور فبجانب هذا الفرح أغضب اذا أنا حرمت مثل ما نالوا » .

ولكن لماذا آثر أحمد أمين خطة الانطواء فلم يتصل بالاحزاب اتصالا مباشرا ولم يغامر فى السياسة مغامرة كبرى ..وظل بعيدا عنها فلم يبرز بروز كتابها .

هل رأى نفسه لا يصلح لها ؟ يقول : « أعرف انى جبان بقدر شجاعتى فى قول الحق أخاف التعذيب وأخاف السجن وأخاف الشنق ، وربما كان هذا هو السبب فى أننى أفضل العلم على السياسة ، وربما كان هذا هو السبب فى أنى تخلفت عن زملائى السياسيين حيث تقدموا الى أن كانوا رؤساء وزارات ... »

سافر أحمد أمين الى العراق وسوريا والآستانة والحجاز ، ثم جال

فى أوربا جولة غير قصيرة ٠٠ ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق ، ومزيد من العلم والخبرة فقد عاشها على الصورة نفسها التى يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحثا لا استمتاعا بها ولا تطلعا الى خفاياها ٠

وليس فى آثار أحمد أمين أى فصول عن هذه الرحلات ٠ الا ماكتبه عنها فى كتاب « حياتى » ٠

يصف أحمد أمين طبيعته فى وضوح ، هذه الطبيعة الحزينة المنطوية حين يقول ٠٠٠ « ما أحوجنى الى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوى بها جوى ٠ ضحكة حية صافية عالية ٠٠ ليست من جنس التبسم ٠ ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ٠٠ ولا هى ضحكة صفراء لا تعبر عما فى القلب ٠ وانما أريدها ضحكة أمسك منها صـــدرى وأفحص منها الارض برجلى » ٠

هذه الطبيعة هى التى يرسمها اتجــــاه أحمد أمين الى العلم والى الدراسات العقلية التى تصل الى ذروة قوتها فى « فجر الاســـلام » وهو « الكتاب الذى أتعبه لانه الاول من نوعه » ٠

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكرا ٠ كتب فى السفور ســنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفور فى قوة ، ودافع عن رأى قاسم أمين ، وقال عن الجامعة انها أزهر بقبعة ٠٠ لقد كره الازهر منذ رأى الطلاب وهو يعرضون الخبز للبيع ، وعاد الى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هـذا أول ما شـاهده فى الازهر ولكن بالرغم من نفور أحمد أمين من الازهر وكراهيته له واتجاهه الى الثقافة الاوربية ٠ هل استطاع حقا أن ينتزع نفسه من الازهر ؟٠٠٠ كلا ٠ « ان كل ما فيه من خير انما مرده الى الازهر » كما قال عنه الامام المراغى ٠

لقد أكسبته طبيعته هذا المزيج من البيئة والأزهر ، طابع البطء فهو « يحب أن يتحرك على مهل ويتذوق على مهل ويستطعم ما يأكل ، وهو يحب النظام حبا شديدا ٠٠٠ »

انه لم يصنع نفسه ، على حد قوله ٠٠٠ « لقد عمل على تكوينى الى حد كبير ما ورثت عن آبائى ٠٠ والحياة الاقتصادية ، والدين واللغـــة وأدبنا الشعبى ونوع التربية ٠٠٠ ان نفسى من صنع الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة ٠ »



مصطفى صادق الرافعي

« وأنا على كل أحوالى انما أنظر الى الجمال كما أستنشق العطر يكون متضوعا فى الهواء ٠ لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ثم لايدفعنى اليه الا فطرة الشعر والاحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ، غير أنه هو منها » ٠

اذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح ، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية فى ذروتها وقوتها، فان ذروة أدب الرافعى ومفتاح شخصيته وعقدة حياته الفكرية والادبية ، شىء واحد هو «الحب» ٠

فكرة واحدة ، أو حب واحد قام فى حياته فلونها كلها وأحالها الى دنيا كاملة ممتدة فى أدبه وكتاباته وفنونه ٠

ماذا كان الرافعى قبل هذا الحب ، وماذا كان أدبه ٠٠ هـل كان يتأهب لهذا الحدث ويستعد لهذا الدور الذى لعبـه القدر فى حياة كاتب رصين العبارة ، بليغ الأداء ؟

أكاد أقطع حين أضع يدى على قصة الحب التى عاشها الرافعى ، ان خصوماته الادبية ، وكتاباته الفنية ومؤلفاته ٠٠ ومذاهبـه فى الاعجاب والخصومة ٠٠ وهذه الحلقات المترابطة الممتدة فى كتبه «حديث القمر ، رسائل الاحزان ، أوراق الورد ، وحى القلم » انمـا هى حلقات من قصة واحدة ٠

وأصدق ما يقال عن «الرافعى» أن نفسه ممثلة فى أدبه ، وان ملامحه الروحية واضحة فى آثاره وأن حياته مرسومة فى فنه ، ببساطتها وتعقيدها ومرونتها والتوائها ، فهو يعيش فى افكاره وأحلامه ورؤياه ، ويبدو من وراء معانيه قاتما ، يعرف حين يغضب وحين يرضى ٠

فاذا بدا هناك بعض الضباب ، فانما هو نتيجة للعوامل النفسية التى تتصل برجل أصم لم يتصل بالناس الا قليلا ، ولم يصل لمكنون أعماقهم الا فى حدود محدودة ولم يلتمس نموهم الا عن طريق قصاصات من الورق تكتب له ٠

وليس الدفاع عن الدين واللغـــة فى ذاته الا جزءا من كيان هـــذه الشخصية وجانبا من التعبير عن النفس فيها ٠

وآثار الرافعى كلها تكشف عن نفسية مضيئة مشرقة ، تفهم الحب فهما دقيقا وتصوره تصويرا قل أن يتاح الا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه ومس شغاف قلبه ٠

ليس للرافعى تاريخ الا قصة حبه ، فقد بدأ حياته شاعرا ثم تحول الى النثر وكاد أن يقصره على « فلسفة الحب والجمال » يصور به عواطفه ويرسم مشاعره ، بل اننا لنذهب الى أبعد من ذلك فنقول انه فى سبيل الحب ، أقام خصوماته الأدبية ، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها ، وكان عنيدا فى صراعه وفى خصومته ٠

ويبدو هذا الصراع قويا حين يتصل بشخصين ، هما طه حسين والعقاد ثم يتبلور الرافعى فى صورته النهـــائية القوية ، حين يتصـــل بالرسالة ويكتب فصوله «وحى القلم» ٠

وللرافعى أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه ، وهو ما لم يتوافر لكثيرين ، ويتميز هذا الاسلوب بالعمق والغموض ٠

وقد تأتى له هذا الاسلوب البليغ العميق الغامض ، من بيئة العلم والفقه والدين التى نشأ فيها حين تفتحت حياته على كتب الادب القديم ، اذ أتاحت له آفته أن يعتكف، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه٠٠ فانقادت له حتى استطاع أن يصاول أقطابهـــا واذا به يرى مدافعا عن القـــديم ، وهو الذى تعلم فى مدارس الفرير ، عـــلى حين وقف بعض الازهريين فى صفوف المجددين ٠

كان الرافعى يحس بالنقص الطبيعى فى سمعه فـكان يعوض ذلك بالتبريز فى ميدان الحياة بالحب وفى ميدان الادب بالصراع ٠

يرسم الرافعى لنفسه فى رسائل الاحزان صورة واضحة ٠٠ « أما هذا الصديق فأعرفه أسلوبا فى الكبر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن على نفسه ، كأنما فتحت أفواه عروقه حنينا ، وملأتها الوراثة من دم ملك كان فى أجداده ، مستصعب شديد المراس ، اجتمع فى تاريخه انسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفا واربعين سنة ، فهو تاريخ احزان قد استفاضت مســائله فى فصـــول وأبواب ، جف القلم منهـــا على نيف وأربعـــين جزءا

كلماتها فى حوادثها ، وأن السطر منها ليرعد فى صحيفة من الغيظ وأن الكلمة لتبكى وأن الحزن ليئن أنينا يسمع ٠

جئنا الى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، ان طوعا وان كرها فمد يدك بالرضـــا والمتابعة للاقدار أو انتزعهـــا ان شئت فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف فى مذاهب القدر ، اذ انت اقبلت أو ادبرت أى وجهيك هو الوجه فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك ٠ أو مدبرا والمنفعة أمامك » ٠

ويرسم صورة حبه « ٠٠ بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم أو كما يقول الفلاســفة فى تعليل ذكاء الاذكيــاء انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه لان فيهم نفوسا خرجت من الدنيــا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا ، غير أن هذه الأربعين بماتعاورت عليه قد هدم بعضها بعضا ٠

كانت حياة صديقى ليلا طويلا انبسط على فنن من الظلام كأنه مورق بالسحب والغمائم السود لا ينقشع بعضها عن بعض ، حتى كأن صباحه مات فيها اربعين سنة ثم انبعث آخرا من وجه فتاة أخيها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها ٠

هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، كانا فى الحب جزءين من تاريخ نشر منه ما نشر وطوى ما طوى ، هدمت الاقدار هذا الصديق فجاءت هى تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقيه بسحرها بناء جديدا ٠

فاذا تعرض لفلسفة الحب ، رسم صــورة جبــارة ، لا ادرى كيف افلتت من معارضيه دون سجال وصراع ٠

« ٠٠٠ وذو الفن لا يفيد من الحب فائدته الصحيحة الا اذا جعلت تحت عقله فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف ، ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ، ومن ثم يرى مجاهدة اللذة فى الحب هى أسمى لذاته ويعرف بها فى نفسه ضربا الهيا من السكينة توليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ويعرفها ويبدع فيها عمله الفنى العجيب ٠

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل اذا كان زوجا وعشق ، أو كان عشيقا وتزوج بغير من يهواها ، استطاع أن يبتدع لنفسه فنا جميلا من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من

الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة ، مس هذا المفكر العاشق يحتاج الى الزوجة كما يحتاج الى العشيقة فهو فى قوته يجمع بين لزامة هذه وقدسية تلك ، لان احداهما توازن الاخرى وتعدلها فى الطبع وتخفف من طغيانها على الغريزة وتمسك القلب أن يتبدد فى جوه الخيالى » .

وللرافعى فلسفة في الحياة ، تحمل طابع التشاؤم كأنما ينظر صاحبها الى الحياة بمنظار أسود .

« ما أتينا الى هذه الدنيا الا ليمثل كل منا فصلا من معانى الشقاء فى تلك الثياب التى هى ملك لصاحب المسرح لا نخلعها ونلبسها ، بل يخلعها بعضنا ليلبسها بعضنا الآخر والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها ، وضعها ذلك القلم الأعلى .

والمشكلة الانسانية الكبرى أن كل انسان يريد أن يكون بطل الرواية وممثلها البكر . والقوم والقدر والموت كالشيء الواحد » .

هذه الفلسفة منبعثة من احساس بالحرمان من الحب ، ومن الم صادع مصدره ذلك الشقاء الذى ظل الرافعى يحمله فى أعماقه طوال حياته ، منذ ذلك اليوم الذى ذهب الى صاحبته فرآها قد جلست الى (شاعر) تحدثه ويحدثها .

فلما طال انتظاره ، مضى على وجهه وأرسل كتاب القطيعة .

وارسلت صاحبته تعتذر له ، ولكن الرافعى مضى فى طريقه ، وأصر ثم أحس بعد انه كان مسرفا .. ومن يومها عاش الرافعى فى غمرة من الشوق والالم والبغض لاتنجلى عنه .

« وما (١) عرف الا من بعد أنه يحبها حبا لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس انسان ، وما عرف الا من بعد انها كانت تجافيه لتطلب اليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان ، وعرف وعرفت .. ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ، وظل وظلت.. وبينهما البعد البعيد .. على هوى وحنين حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء » .

ويصف هو هذا الحب .. « كان حبى اياها حريقا فى الحب فمثل

---

(١) سعيد العريان فى «حياة الرافعى» .

لعينك جسما تناول جلده مس من لهب فتلسع هذا الجلد هنا وهناك من سلخ النار ، وظهر فيه من آثار الحرق لهب يابس احمر ، كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم .

والحب ـ ان كان حبا ـ لم يكن الا عذابا فما هو الا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حالة منه فى عذابه الا وهى دليل على شيء منها فى جبروتها .

ولما رأيتها أول مرة ولمسنى الحب لمسة ساحر ، جلست اليها أتأملها واحتسى من جمالها ذلك الضياء المسكر الذى تعربد له الروح عربدة كلها وقار ظاهر ، فرأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى فوقها الادمية ساكنة وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى » .

ويصف الاستاذ سعيد العريان حب الرافعى فى أكثر من موضع فى كتابه « حياة الرافعى » قائلا « ان الحب عند الناس هو حيلة لايجاد النوع ولكنه عند الرافعى حيلة النفس الى السمو والاشراق والوصول الى الشاطىء المجهول ، هو نافذة تطل منها البشرية الى غايتها العليا وأهدافها البعيدة .

كان يحبها حبا عنيفا جارفا لايقف فى سبيله شيء ، ولكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات ، وفوق الغايات الدنيا ، لانه ليس له مدى ولا غاية لقد كان يلتمس مثل هـذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح وقد وجدهما ولكن فى نفسه لافى لسانه وقلمه .

وأحس وشعر وتصورت نفسه الآفاق البعيدة ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيـــان الذى يصف نفســـه ويبين عن خواطره .

لقد أحبها جهـد الحب ومداه حبـا أضل نفسه وشرد فـكره وسلبه القرار ، ولكنه حب عجيب ليس فيه حنين الدم ولكنه حنين الحـكمة الى الحكمة وهفوة الشعر الى الشعر وخلوة الروح الى الروح .

و .. كان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر فما وجد الحب وحده بل وجد الحب والالم وثورة النفس وقلق الحياة .. وجد فى كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضيء بها فكره وكان آخر حبه الالم ، وكانت آلامه أول قدحـــة من شرارة الشعر والحكمة .

وظل الرافعى يحب صاحبته « انه ليس معى الا ظلالها .. ولكنها

ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي • وكل ماكان ومضى هو في هـــذه الظلال الحية كائن لا يفنى » •

وكان يحس بندغ الحب بعد مضى ثلاثة عشر عاما طوالا •• فيقول «انها حماقتي وكبريائي •• ليتني لم أفعل •• ليت » •

وأنشأ الرافعي «رسائل الأحزان» في وقدة الحب وغمرته • ثم أنشأ «أوراق الورد» بعد أن تحول الحب الى حزن مقيم في أعماق النفس ، وكان حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبته ، ولعل من آثار هذا الحب ، هذه المعركة الضخمة التي اندلعت بينه وبين العقاد ، وامتدت آثارها الى المدرسة الحديثة •

« لقد (١) وضعك حسنك في طريقي موضع البدر ، يرى ويحب ولا تناله ولا تعلق بنوره ظلمة نفس » •

« ومحت (٢) صورتها من ماضيه كل ما كان في أيامه وكل من عرف لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ، وانتزعها هو من أيامها » •

ونظر الرافعي اليها والى نفسه وراح يحلم ، وخيل اليه انه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها •• كانت زوجته •• ثم عاد الى نفسه يؤامرها فأطرق في حياء •

وقالت له نفسه وقال لنفسه : فكأنما انكشفت له أشياء لم يــكن يراها من قبل بعيني العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتحـل العقدة •• ثم جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة •

ولكن الرافعي بعد أن فقد صاحبته ، تفتح للحب ، فعاش له ، كان يحاول أن يملأ فراغ نفسه ، ولكنه فيما يبدو لم يستطع •• فقد أراد أكثر من مرة •• أن يعيش في حب جديد ، ولكنه كان أبدا مشدودا الى حبــه الاول •

عاش الرافعي حياته للحب ، كانت « «مي» هي المنار القوى السامق الذي يبدو له من كل مكان ، وهو بين عواصف البحر ولجحه •• ورأى في وجهها من النور والصفاء ماجعلها بين عينيه وبين تلك المعاني السامية

---

(١) الرافعي •

(٢) سعيد العريان •

كمرآة المرصد السماوى فكل مافى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ٠٠ وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه (١) » ٠

ولعل فشل الرافعى فى حبه ٠٠ هو الذى دفع رأيه الى أن يسوء فى المرأة ٠٠ والمرأة من هؤلاء لايمشى أمرها فى الناس ولا يتصل عيشها الا اذا كثرت ثيابها فهى تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ، فينبعث منها الغضب ٠٠٠ وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث منها الرضى وهى فى أشد الغيظ ٠

« فهى تبرز حين تخرج من بيتها لا الى الطريق ولكن الى نظرات الرجال وتظهر حين تظهر بصورة لابتلوين نفسها مما يجوز ومما لايجوز ، ولكن بتلوين مرآتها مما يعجب وما لا يعجب » ٠

وقد أثير سجال فى «الرسالة» بين تلميذين من تلاميذ الرافعى حول حب الرافعى قال فيه الاستاذ حسنين مخلوف : ان الرافعى أراد أن يحدث فى اللغة العربية لونا من الفن الممزوج بالفلسفة الاجتماعية التى تقوم على ايجاد المرأة على النحو المستفيض فى الأدب العربى فطلب الحب لذلك ٠٠ أما الاستاذ كامل محمود حبيب فيرى أن الرافعى شعر بجفاف قلبه لشدة تدينه فطلب الحب ليندى به قلبه ويرقق أسلوبه ، ويرى الاستاذ سعيد العريان أن الرافعى بكبريائه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يخلق للحب ، ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام وصراعا دائما ، ومقطع القول فى كل هذا ما أردنا فى أول الفصل عن فلسفة الرافعى فى الحب وهى ايمانه فى الجمع بين الزوجة والحبيبة ٠

والرافعى الى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين ، فهو اذا تحدث عن الادب أوالفكر قال انه يكون رجلا قد طغت فيه الحياة طغيانها الشديد المجتاح ، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الخيالى العنيف المتمرد ، وهذا لايصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له ، فانه انما يريد المرأة المغلة كأنها ضيعة من الفن الحى ، تغل عليه من ثمراتها ، وقد أبى الشيطان لعنه الله الا أن تكون المرأة المغلة فى الفن امرأة محرمة ٠٠ ومتى كان الشيطان فى الامر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حدة ٠٠ ومن هنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة ٠٠ وهذا سر تعزبهم وانصرافهم عن الزواج أوانصراف الازواج عنهم وهؤلاء بركة على الفن ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة ٠

---

(١) الرافعى ٠

ومن سخرية الحياة فيهم أن يكون العبقرى فيهم هو من ناحيـــة أخرى الحيوان العظيم ٠

فاذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعى على ضوء هذه الصورة وغيرها من صور حياته وجدناه مثلا لعزة النفس وكبريائها ٠٠ وقد عاش طوال حياته فى حدود دخله الضيق ، ولم يفد من الانتاج الادبى فائدة تذكر ٠ فقد كان أدبه من ذلك النوع الذى لايؤدى الى الثراء ٠

بل لعل انشاء هذا الادب الجديد الذى كتبه فى الرسالة انما جاء نتيجة للاضطرار حين أراد أن ينفق على ابنه فى بعثته فى الخارج ٠

ولم يسافر الرافعى الى خارج مصر ، وانما عرف بحبه للانتقال بين المدن المصرية وكان يجد فى الانتقال لذة ، يغذى به عاطفته ويمد أدبه ٠

وهو يؤمن برسالته الادبية « ٠٠ القبلة التى أتجه اليها فى الادب انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يبعثها حيه ويزيد من حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لاأمس من الآداب الا نواحيها العليا ثم انه يخيل الى دائما : انى رسول لغوى للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » ٠

وقد قرأ الرافعى فى فجر شبابه لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده وغوستاف لوبون وتأثر بهم ، ويرى أن كتابه «أوراق الورد» هو خـير كتبه « لانى لم أتعب فى شىء مثل تعبى فيه وربما بيضت الرسالة الواحدة فى أربع سـاعات لأن الغرض هو اعطاء العربيـة هذا الـكنز الذى ليس فيها » ٠

وقول الرافعى انه انمـا يريد ابتـداع لون جديد من فلسـفة الحب والجمال فى الادب العربى انمـا هو تبرير لنشر هذه الرسـائل فى الوقت الذى كانت فيه الـكتابة عن الحب معـدودة من المحرمات ، أو ممـا لا يليق بكتاب الدين والادب الرفيع ٠

وقد استطاع الرافعى تحت هذه الظلال أن ينفذ الى غرضه وان يترك ثروة ضخمة من هذا اللون الذى تحرز من الكتابة فيه من كانوا فى نظر القراء أقل محافظة واكثر جرأة ٠

وليس من شك أن الرافعى كان مخلصا لأمانته وفنه ، فقـد كان يسكب روحه على الورق ، ويصدر عن نفس مؤمنة ، عميقة الايمان والاقتناع

ولعل العقص الطبيعي في حاسة سمعه كان يدفعــه الى أن يداور المعنى ليسلس له أو ليجعله أشد وقعا في أذن القاريء وفي نفسه ٠

ولقد عرف « الرافعي » بالقوة البــالغة في ميدان النقد حينما يتصل ذلك بأدبه ، عرف ذلك في موقفه من العقاد ، وطه حسين ، وزكي مبارك ، وقد داعبه « الزيات » في هذا حين كتب رده العنيف على « عفيفة السيد » اذ قال انه أراد أن يمسك قلم أوراق الورد ليكتب رده ، أخطأ فأمسك قلم « على السفور » ٠

ولــكن يبدو أن « طاقة » الرافعي النــاقدة كانت ضخمة جدا لو أنه استطاع أن يجد المجال لها ، وفي خطاب منه الى الاستاذ محمود أبو ريه « كل ما أتمناه من زمن بعيد هو أن أتفرغ لمقالات في النقد نحو سنتين أو ثلاث تهــدم العصر كله من جميــع نواحيــه الضــعيفة وتبني عليــه أدبا جديدا » ٠

وكان رأيه في الصحف ســيئا ٠٠ « لو عرفت يا أبا ريه الصــحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الاعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفا ولكنها حوانيت تجارة » ٠

والرافعي سيىء الرأى في المنفلوطي ٠٠ « فان حياة هذا الرجل كانت كلها موت له فصار موته كأنه حياة تبعث على الرغبة في قراءة ما كتب » والرافعي على شماسه وعصبيته كان حريصــا وكان يعرف ما يطلقون عليه اسم الكياسة واللبــاقة ٠ يبدو هذا في خطاباته الى الاستاذ محمود أبو ريه ٠

« واعلم اني لو نظمت رثاء الشهيد فريد بك كمــا يجب أن ينظم وفي المعاني التي تليق به لرأيت في الصحف خبر نقلي الى قنا أو مادونها فترك الشر ساكنا أجمل بي » ٠

وقوله : « دار الــكل ٠٠ فان اتقــاء الضرر كجلب المنفعــة فاجعلها قاعدتك » ٠

وغاية القول في « الرافعي » انه كان على رأس مدرسة جديدة لا شك في جدتها وقوتها ، في انشاء هذا اللون الوجداني ، وجديدة في صراحتها وجرأتها في النقد ٠



جبران خليل جبران

عاش جبران خليل جبران حياة يلفها غموض وسحر وبريق ولهب وحب ، هذا النحيل الذى كان يرسم ويكتب ، ويطوف ببلاد أوربا وامريكا ويكتب بالانجليزية والعربية ، ويعيش فى برج عاجى فى قلب بلاد المهجر ينشىء فنا جديدا من فنون الـكتابة فى الادب العربى يتحرر به من قيود اللغة والادب ، ويضرب فى سبيل جرىء .

هذه الحياة القصيرة ، التى عاشها جبران ، كان الحب والألم عنصراها الخالدان ، ومنهما استمد الادب عنده حياته وحرارته ، وأحب أول ما أحب فى هذه الدنيا « أمه » أحبها بعنف وحرارة غير معهودة .

« أمى ، ان أعذب ما تنطق به الالسنة هو لفظ الأم ، واجمل مناداة فى الوجود هى «ياأمى» كلمة صغيرة كبيرة، مملوءة بالامل والحبوالانعطاف الأم هى كل شىء فى هذه الحيـــاة ، هى التعزية فى الحزن والرجاء فى اليأس ، والقوة فى الضعف ، هى ينبوع الحنان والرأفة ، فالذى يفقد أمه يفقد صدرا يسند اليه رأسه ويدا تباركه وعينا تحرسه ، كل شىء فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس هى أم هـذه الأرض ترضعها بحرارتها ، وتحضنها بنورها ، ولا تغادرها فى المساء الا بعـد أن تنومها على نغمة أمواج البحر ، وترنيمة العصافير والسواقى ، وهذه الارض هى أم للأشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها » .

عاش جبران للحب ، وعرفه بكل ملذاته وآلامه .. « الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الارواح القوية فتجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

ولقى فى حياته موكبا من النساء ، فى باريس ، وبيروت ، وبروكسل ولندن ، وبوسطن .

لكن المرأة الأولى ظلت تقيم فى أعماقه لاتبرحه .. « سلمى كرامة »

المرأة التى أحبها فى سن الثامنة عشرة .. المرأة التى علمته عبادة

الجمال ، وأرته خفايا الحب ٠٠ وختمت قصتها بالمأساة ، حين أرغمت على الزواج برجل آخر وماتت وهى تضع أول ثمرة من أحشائها ٠

« (سلمى كرامة) المرأة الأولى التى أيقظت روحـــى بمحاسنها وعلمتنى عبادة الجمال ، وأرغمت على الزواج برجل آخر » ٠

كان فى قلب جبران وعقله شىء واحد ، هــو الفن : على صــورة من الرسم أو ورقة من الكتابة ، كلاهما سيان عنده ، ولما قصــد الى بيروت ليدخل مدرسة الحكمة ويتعلم العربية وأحس بالفشل ، ذهب الى باريس ليدرس الفن ٠

شاب فى العشرين من عمره ، يرتاد متاحف اللوفر ، ويشاهد آثار ميكلانجلو ورمبرانت وروبنسن ، وفى العام التالى (١٩٠٤) عاد الى بوسطن حيث وجــد أمه واخوته فى أشــد حالات الألم ، ومات بطرس وماتت الأم بالسل ، وبقيت أخته مريانا تنفق عليه من ابرتها ٠

وتقاذفته عواصف الحياة ، واندفع يعب من تيارهـــا «اننى أمشى دواما على هذه الشواطىء بين الرمل والزبد ، يجىء المد فيمحو آثار قدمى وتهب الريح فتثير الزبد هباء ولكن البحر والشاطىء باقيان الى الأبد » ٠

وعرف الحب فى صورة أخرى غير صورة سلمى كرامة ، وقال عنــه « انه كوثر تسكبه عرائس الفجر فىالارواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل ، وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » ٠

عرف «مارى هاكسل» ٠٠ ووجد فيها ذلك الملاك الذى كان يفتش عنه منذ سنوات ، وجد الصورة الحية فى أعماقه ، أعجبه فيها ذوقهـــا وفهمها للفن ، كانت تحبه متجردة للحب ، لم تكن تتمنى الا أن تأخذ بيده الى المجد ، كانت تؤمن أن لكل فنان ملهمة ، فأرادت أن تكون ملهمتـــه ، يقول ميخائيل نعيمه « ولم يخطر له ولا لمــارى هاكسل ان الحائك الاكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطى حياتهما ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الأزل على منواله السرمدى » ٠

وعرف ميشلين ، كانت فى عينه ملاكا فى صورة امرأة ، فى العشرين من عمرها ، فيها طهــارة الطفل وابتسامة الزهر ، « جميلة تمشى كأن فى رجليها أجنحة وفى قلبها سلطانها لاعقلها ، بلا ادعاء ولا كبرياء» ، وربط الحب بينه وبينها بالروح والجسد ، ورمته بالانانية لانه رفض الزواج بها واتهمته بأنه لايعرف الا نفسه ٠

وظل حبها يصارع حب ماري هاكسل في نفسه ، وكان صراعا طويلا جبارا وصفه بقوله « كان حبي للاثنين خالصا وفيا ، أحببت ماري هاكسل لتجردها من الرذائل وكرم نفسها وذوقها السليم فقـد أحبتني ولم تطلب مني شيئا ، وأحببتها ولم أطلب منها شيئا وأمدتني بالمال وفي وقتحاجتي لها ٠ ولم تكن لها أمنية الا أن تراني أرتقي مدارج الشهرة والمجد والكمال الفني في الرسم ، أما المرأة الثانية فقد أحببتها لجمال روحها وجسدهـا أحببتها لوفائها وأنوثتها وطاعتها ٠ كانت ماري أكبر مني ومشلين أصغر مني سنا» ٠

وعرف اميلي ٠٠ كانت زميلته في المدرسة ، وكانت آية في الجمال والروعة لقد فتنه منها انها قالت له عندما رأت لوحته عن البحر ، الفن هو أن تأتي بضمير البحر لا أن ترسم أمواجا مزبدة أو مياها زرقاء هادئة ، وكانت مثال البساطة والصراحة تغلب العقل ولا تعرف الشهوات ٠

وأحب «مي» دون أن يراها أو يعرفها ، كان يحس أن روحها أخت روحه «سكب كل منا روحه في رسائله الى الآخر» ٠

وارسلته ماري هاكسل الى باريس على نفقتها ، وعاش طالبا في البوزار في الحي اللاتيني ٠٠٠ يفكر في المرأتين اللتين تركهما وراءه ، ويقول ياليت روح ماري كانت في جسد ميشلين وجاءته ميشلين ٠٠ من وراء المحيط ولكنها سرعان ماتختلف معه وتهرب عند ماترى انه لايريدها الا حظية له ٠

وأمضى ثلاث سنوات زار خلالها روما وبروكسل ولندن ومتاحفها وآثارها الفنية وعاد الى امريكا ليبدأ حياة جديدة غير واضحة المعالم ، وكان خلال اقامته في باريس قد أنشأ كتابيه « عرائس المروج » و « الأرواح المتمردة» ٠

كان يطمع في أن يفتح الفن والادب امامه آفاق الحياة فيريح مريانا من الابرة ، لايزال يحب مـــاري ، وكانت هي تقـدر مواهبه وتفهم أشواقه ومطامحه ، ففكر في أن يتزوجها ليضع لحياته قاعدة تدفعـه الى التفرغ لعمله ، وقد وصف ميخائيل نعيمه حبها بقوله : « كانت تحبه حتى لتحس بخمر جديد تدب في افكارها عندما تجلس اليه» ٠ فلمـا عرض عليها رغبته في أن تتزوجه قالت له : وهل أنت نظيف ، « وانقلب من حمل وديع الى أسد جريح ، كان يظن أن حبها له أرفع من محبة الذات » ٠

وتعاطفا وبدا أن حبهما قد تحطم ، ولكنها مع ذلك ظلت تبعث اليه بالحوالة ذات الخمسة وسبعين دولارا ٠

وفى ضـوء هذه الحياة المليئة بالحب والعواصف والآلام والمتاعب أنشـأ جبران أدبه ، كانت قراءته فى الادب الغربى ورحلاته المتعـددة ، وحياته المضطربة ، هى التى صنعت أدبه المتمرد الملىء بالحرية والصراع والثـورة ٠

لقد احب نيتشه وفتنته دعوته الى الانسان الاعلى ، وكادت معرفته له أن تطغى على معرفته لجميع الادباء والشعراء ، حتى لقد قال : ان معرفته لنيتشه قد جعلته يخجل من آثاره التى قدمها قبل أن يعرفه ٠

وفى هذا الاتجاه يقول « ان الدموع تليق بمآقى النساء ٠ أما أنت فدعك منها » واندفع يحرر نفسه وأدبه من الدين ، حتى رمى بالكفر ٠ لقد انكر الاديان واتجه الى الانسانية العليا ٠

« لقد حررت عواطفى من عبودية الشرائع لأحيا بناموس المحبة ، وحولت وجهى نحو الشمس لئلا أرى جسدى بين الجماجم والأشواك ، ان شرائع الزواج كما يطبقها الناس هى من صنع الرجل ، اما الحب الذى يريدون ان يجعلوا الزواج تاجا له واكليلا فهو من صنع الله ، فالكاهن الذى يبارك لن يطرد الحب من قلب يقيم فيه ولن يدخله الى قلب خلى »

وهو منذ شبابه ثائر متمرد ، لا يحب الاعتدال : « أحب من الناس المتطرفين أحب القادرين على الهبوط الى لجج الحياة والصعود الى اعاليها ، أحب الذين يميلون بكليتهم الى وحدانية الامور فلا يقفون مترددين بين نقيضين ٠ أحب النفوس الطامحة بمرام كاتب قوى ثابت ٠ وأهوى الارواح البسيطة » ٠

« أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين ، المستسلمين الى عواطفهم المنصرفين الى مبدأ خاص ، المتحولين عن اختلاط الافكار الى فكرة أولية مجردة ترتفع بهم الى ما وراء الغيوم وتنحدر بهم الى أعماق البحار » ٠

وهو فى الحب يبغى التطرف : « من يعتدل فى حبه لا يشرب من كاسات الحب خلدا مبردا ولا مرا حاميا ، ومن يعتدل فى دنياه يبقى حيث ولدته أمه ، فلا يتراجع الى الوراء ولا يخطو الى الامام ، أحب الذين احرقوا ورجموا وشـنقوا وقضـوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة أشعلت قلوبهم » ٠

وكان جبران بهذه النفس الثائرة العاصفة يحب العواصف والاعاصير والامطار المنهمرة والاشجار التى تتمايل وتضطرب اغصانها ٠

وكان من جرأة رأيه أن حرمته الكنيسة من حقوقه وحكمت عليه بالنفى لانه كان انسانيا فى الدين فلا يراه فى حدود الطقوس والمزامير ٠

وهو مغال فى رأيه ، يميل الى الغرابة ويكره السهل واليسير والرأى المطروق وطبيعته لا ترضى بالطريق المسلوك ٠

« اريد ان انصب تمثـالا للجمال لا للحرية لان الحرية هى التى يشعلون الحرب تحت قدميها ، اما الجمال فهو الذى يمد الناس أيديهم اليه رمزا للاخاء والحب » ٠

ومضى جبران يشق طريقه ، ويكتب رسائله ، ومن ابرزها فى هذه الفترة كتاب « النبى » الذى صوره فيها على هيئة « زرادشت » التى خلقها نيتشه ، وان كانت شخصية النبى هى خلاصة أفكار جبران ذاته ٠

يقول ميخائيل نعيمه انه بعد سنة ١٩٢٠ اشرف على فجر حيـاة جديدة وأن العواصف التى أثارها نيتشه كانت قد بدأت تهدأ ، وان جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها قد عاد يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقه ٠

وأخذت الشهرة وعلامات المجد تملأ حياة الفنان الـكاتب ٠ فتزايد زوار صومعته وتكاثر المعجبون به وأكثرهم من الجنس الآخر ، وبدأت علامات الثراء تغمره وانطوى منه الادب الجرىء ، وبدأ أدب المجاملة حيث يصفه نعيمه بقوله : « ولما أحس بالمجد والعظمة على ألسنة الناس لم يعد فى استطاعته أن يكوى تلك الالسنة بنار نقمته وسخريته بل صار يبذل كل جهده ليكون عند حسن ظن الناس ، وكلما ازداد توفيقا فى هـذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة التى يعرضها على الناس وروحه الباطنة التى كان يسترها عنهم » ٠

وكان قبلا « يصفع الناس بيد ويصافحهم بالأخرى ، ويثور عليهم عندما تثوب اليه روحه المتألمة من كل شفاعة وقسوة وظلم ٠ ويسالمهم عندما تثور عليه نفسه الطماحة الى المجد والعظمة وهكذا انقسمت نفسه على نفسه » ٠

ومضى جبران يعمـل وينتج • كانت روحه القوية تنـازع الداء وتصارع الألم •

وظل الحب عنوان حياته وقوامها •• كان يحب ويدعو الى الحب ويتسع حبه للعالم كله وقد شرب كأس الحب حتى الثمالة •

يقول : « عندما تتوثق عرى الصداقة بين رجل وامرأة فيذوقان معا كأس الحياة مترعة ، تكون منهما ذاتية واحدة ، ويصبحان كمن حمـل وولد ولدا ، له أمل فى البقاء والتناسل أو كأنهما نظما قصيدة أو أنشودة لا تموت ، هناك فى عالم الخالق شيء لن يموت لاننا صديقان » •

والحق أن المرأة كانت هى أروع فصل فى حياة جبران، هى روح تلك الحياة ومنها استمد الضياء والفن والالهام •

تقول بربارة ينج صديقة جبران ومؤرخته : « لم يشـــهد العـالم كله أغرب من جبران ، شرب الكأس حتى الثمالة مره وشهده ، وليس ثمة عاشق يعتد به فى الوجود يتحدث عن كأس الحب الذى شربه •

كان هناك صنفان من المرأة فى نظره ، المرأة التى كانت تحبه وتخلص له وتتفانى فى ولائها ، لان هذا الحب كان وليد الاقرار بالفضل والاعتراف بالجميل ، كان حبا خالصا •• لا يتطلب منه مجهودا أو بذلا ، وهناك المرأة التى كان يصف حبها بقوله « تعتقدين اننى أحسن مما أنا حقيقة ، تحبيننى شاعرا ورساما ، وتصبو نفسك الى شيء منى كشاعر ورسام ، اما أنا بالذات فلست تعرفيننى ولا تحبيننى » •

وعاش جبران حياة البوهيمية المطلقة ، يحس أحيانا كأنه هبط الى هذه الدنيا من أحد الكواكب • وأنه انسان يعيش على هذه الارض بغير أمس ، وبغير ماض ، وكأنما كل ما حوله من مظاهر البشر وأشكالهم واصواتهم غريب عنه •

يقول « عند ما قذفتنى أحشاء الغيب فكرة هيولية اجتمعت الكائنات حولى لتخرجنى هيكلا ينبض بالحياة،قبلتنى النجوم بأشعتها فاستيقظت، ونفثت أزاهير الفصول الهاربة طيبا فى فمى فتنفست ، وأنشدت الحيـاة والأعاصير أغنيتها فى أذنى فتحركت ، وسرت هينمة النسيم فى مفاصلى فاختلجت ، وظلت موسيقى الكائنات تهدهدنى بين أنغامها المنعشة الى أن تكونت » •

هذا هو أدب جبران يصوغ المعانى صورا هائمة حالمة ، وقد عرف بهذا اللون الابتداعى الخالص ٠

وفى كتاب « النبى » يصور المحبة على هذا النسق الموسيقى الحالم :

« جوهر الحيـاة واحد وهو المحبة ، وهـذا الجوهر يدفع ذاته لـكل الناس على السواء ولكن بعضهم لا يســمعه ولا يبصره ، أما الذى يطهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية ويمزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة الا جوهرها الصافى وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها ، بل يحبها بكليتها ٠

الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجـزيئة والفردية والزمانية والمكانية ، وهى فى قطرة الماء مثلها فى الاقيانوس ، وفى ذرة الرمل مثلها فى الجبل ٠

ولما ارتوى جبران من الجمال والحب والمجد ، بدأ يحس بالانطواء ، وأخذ يكره الحضارة والمدنية الصاخبة العجاجة ، ويحلم بالجبال ، ولقد اتسعت دنياه ولكنه أحس بفقر أحد نابا من الفقر القديم ، ووجده أقسى ملامسة من تلك التى طالما ساورت أيامه ولياليه ، فقد أقفر قلبه من الحب فى حين أن النســاء كن يحمن حــوله ، حول الفراش حــول السراج ، والشهرة وما اليها من بخور الاعجاب ، قد تخدر القلب حينا ولكنهـا لا تطفىء عطشه ، ولا تسكن جوعه ولا تؤنس وحشته ، فكيف به اذا كان قلب شاعر وفنان » ٠ هكذا يصفه ميخائيل نعيمه ٠

لقد جمع جبران فى أدبه بين المتناقضات ، ولكنه كان صادقا ٠ ان أدبه مرآة نفسه فى تطوره من الشـباب العـاصف الى الشيخوخة المتمردة ، ومع ذلك فقد كان يرى أنه لم يصل القمة فيقول « ان كرمتى لم تثمر غير الحصرم ، وشبكتى ما برحت مغمورة بالماء » ٠

وعاش حياته ثمانية وأربعين عاما ، فى صراع مستميت مع نفسه ليكون مثالا أشبه بالتمثال المصنوع من المرمر وترك تراثا أدبيا خالدا ، هو لون جديد من الأدب العربى الجرىء الحر ، الجرىء على قيود الأسلوب واللغة والخيال ، الحر فى أفكاره وأدائه ، ولقد صدق جبران حين قال : « جئت لأقول كلمة ، وسأقولها ، واذا رجعنى الموت قبل أن ألفظها فالغد لا يترك سرا مكنونا فى كتاب اللانهاية » ٠

وعاد جبران الى الارض التى أحبها ٠ ولكنه عاد جسدا كريما حيث

ثوى قريبا من المكان الذى أحب ، كان ذلك سنة ١٩٣١ ، كنت طالبا فى المدرسة الابتدائية · وانى لأذكر ذلك كانه وقع الآن ، وكان « الأهرام » يصل الى بلدنا فى الساعة الواحدة ظهرا ، وكنا فى احدى حصص بعد الظهر حيث لمحت اسم جبران فى الصفحة الأولى ينعى الى القراء ، وساءلت نفسى من يكون جبران خليـــل جبران · ان اســـمه الموسيقى قد ملأ نفسى فرغبت الى أن أقرأ له ، وصــــادفنى أول ما صادفنى له كتاب الاجنحة المتكسرة فرأيت عنده فى ذلك الوقت الباكر شيئا جديدا لم يكن معروفا فى أدبنا العربى ، هذه الطلاقة وهذه الالفاظ المتموجة كأنها لحن موسيقى أكثر مما هى كلام مكتوب ·

وبدأت أعرف الادب المهجرى وأقدر مكان جبران فى أدبنا ، وأخذت أدرس هذا الطابع الجديد الذى تميز به أدباء المهجر ولكنى كنت دائما أرى جبران قمة من القمم العالية ، كنت أحس أن وراء معانيه روحا ثائرة متمردة منفعلة ، بها مرارة واضحة ، كأنما يريد جبران للشرق أن يلحق بالحضارة فى دفعة واحدة ، ولا يقدر التطور الطبيعى فهو ثائر ، أغلب ثورته على الطقوس والتقـــاليد الموروثة باسم الدين والتى يسيطر بها الكهان على الناس ·· وهذه فى عقله الباطن ترجع الى قصته مع سلمى كرامة ، يوم وقفت هـــذه التقاليد حائلة دون زواجه بهـــا بعد أن أحبهـــا وكأنما كان هذا الموقف مقطعا فاصلا فى حياته وتفكيره وعقيدته ، فهو قد اندفع فى الحياة يكافح ولكنه لم يأنس ما بقى من حياته الى امرأة على كثرة ما عرف من النساء وكأنما وقف ذلك الحب القـــديم حائلا بينه وبين ممارسة هذا الفن الجميل ·

ولعل اندفاعه فى سبيل المجد قد حال دون أن يتم حياته فى هذه الناحية كأى فنان ، وجمـــلة القول أن جبران فى مجموعه علم على الصراع بين الشرق والغرب وبين لبنـــــان وأمريكا ، وبين ظلال التقاليد وحرية الحضارة فى ميادين الأدب والمجتمع والحياة فهو أحد ضحايا التطور ، وأحد روادنا الأوائل ، وقد اتسم أدبه بهذه الحيرة اتسام حياته بها · فقد كان أدبه صورة نفسه وحياته ، لقد حاول أن يعيش فنانا فى قلب أمريكا ، مع ذلك فقد ظل ذلك الانسان الشرقى الكامن من أعماقه يراوده ويصارعه ويضايقه ، ويبدو أنه كاد يستسلم اليه فى آخر أيامه عندما خفت حدة الصراع ودخل فى دور الكهولة ·



ميّ زيادة

كانت قصة «مى» فريدة فى موضوعها ، لم يتح لها أن تتكرر فى تاريخ الادب العربى المعاصر ، فهى مرتبطة اشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على اثر صيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال ان « مى » فكرة أكثر منها أنثى ، وعلامة من علامات الطريق أكثر من أنها كاتبة عاشت فى القاهرة ، وكان لها صالون تستقبل فيه أعلام الادب أمسيات الثلاثاء .

برزت فى الوقت الذى كانت المرأة فيه مازالت محجبة ، وكان الهامها لارباب الفكر واهل الادب يكاد يكون معدوما . فكانت «درة» مفردة ، يلتقى فى مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى واسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن .

ولعلنا لا نستطيع أن نخلى آثار هؤلاء الادباء من طيف «مى» وروحها اللطيفة فقد اجمع هؤلاء جميعا فيما كتبوا عن « مى » أنها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة بارعة الحديث ، سيدة صالون بحق ، قد أعادت فى قاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولادة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والادب والشعر والفن وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها تدير الحوار فى براعة ، وتنقل المحدثين من فن الى فن .

قرأت آيات الأدبين الفرنسى والعربى اذ فتحت عينيها على مكتبة والدها الاديب الصحفى ، واكسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنيا فانشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية وأسلوبا يدل عليها وتعرف به فكان أدبها صورة نفسها فى احزانها وافراحها وآمالها وآلامها .

وكان أدبها الى ذلك صورة الادب النسوى العربى فى طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية ، وقد كانتا شاعرتين أكثر منهما ناثرتين . ولذلك عدت « مى » الرائدة الاولى للادب النسوى الخالص .

وقد أتاحت لها هذه الحرية فى الكتابة والحياة والانطلاق ببيئتها اللبنانية الاولى التى تفتحت عليها نفسها وعواطفها ، فهى قد ولدت

فى الناصرة ، وقضت ايام طفولتها فى كسروان وعين طورى ، ثم جاءت الى مصر فجمعت بين روح الجبل وروح النيل ، وبين ادب الانجيل وأدب القرآن ، وبين بيان الضاد وبيان الفرنسية ، فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذى اتاح لها هذا القلم الرشيق الانيق وذلك اللسان اللبق البليغ وهما قلما يجتمعان لاحد الا فى النادر فقد عرف أن الكتاب البارعين لا يكونون محدثين الا فى القليل .

ونحن اذ عدنا الى « مى » وتصورناها تعيش فى القاهرة ، وقد أخذت تذيع أدبها فى الهلال والمقتطف والأهرام وتفتح صالونها للأدباء والاقطاب رأيناها أشبه بروح جميل تنشر الضياء والشذى من حولها الى كل مكان يمكن ان يصل اليه ، والى أبعد مكان يمكن ان يصل اليه، فقد كان جبران خليل جبران يعيش فى المهجر ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون من الحب الروحى الغامض لمى ، وكان الرافعى وهو يعيش فى طنطا يحس أنه مرتبط الأواصر بها ، بل ان الامر ليبلغ بالرافعى حد ان تكون هذه الرابطة اعظم خطرا من علاقة صداقة مجردة ، فقد لونت « مى » ادب الرافعى كله ، واثرت فى ايام حياته كلها منذ عرفها الى أن قضى .

والحق أن « مى » قد اوحت الى الكثير من الادباء المعاصرين ، وأمدت ادبهم بالهامها وتركت روحها وراء كلماتهم .

ولكن « مى » التى كانت تلتقى بالادباء وتفتح صالونها لاقطاب مصر ومفكريها كانت فى صميم حياتها الخاصة منطوية على نفسها ، كانت حريصة على ان تعيش طويلا فى « برجها » الخاص لا تبرحه . كانت محافظة كثيرة الحيطة والكتمان والاحتراس تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك فى مرح الرجال .

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقى البعيد المدى ، الذاهب فى جذور النفس ، والذى لم تتخلص منه حين تخلصت من مظاهره ، ولكنها الى هذا كانت مصرة على أن يظل لها جوها الخالص ، وكانت لا تقبل النصح أو التوجيه فى تغيير أسلوب الحياة ، وفى رحلتها الى أوربا وعودتها كانت تعكف على نفسها وتنزوى فى ركن من أركان المركب ، لا تشارك فى رقص ولا طرب ولا مرح .

انها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المنطوية التى استقبلت

الحياة على صورة لم تسبقها اليها انثى فى زمنها ، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيه على شجرة أو فنن ·

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا ، هناك نفوس حيرى كانت تتصل بها وتكاشفها بالعاطفة ، ونفوس أخرى طوت أضالعها على شوق أو اعجاب ، وتلقت هى رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعى وعشرات آخرين . ووجدت فى هذه الرسائل آمالا ومعانى تتصل بالنفس الشاعرة . وكتبت « مى » الى هؤلاء ولكن الى اى حد مضت هذه الخطوط ؟

من أحبت « مى » صادقة من هؤلاء ؟ وكيف رسمت فى نفسها صورة المستقبل ؟ هذا هو الجانب الغامض فى حياة « مى » وهنا سر حياتها وموتها ومصدر أزمتها التى أنهت حياتها بمأساة ·

كانت « مى » روحا لطيفا ، وكانت تحب حبا وجدانيا خالصا، ولكنها لم تلبث ان بدات تصارع عوامل مختلفة متعددة فى حياتها فقد ارتفع بها السن وبدا أن الحياة لا بد أن تأخذ طابعا أكثر استقرارا ·· وفيما تمضى « مى » فى طريقها اذا بها تتلقى عدة صدمات فى وقت واحد فقد مات ابوها ، ثم ماتت امها بعد فترة قصيرة ، فزلزلت الحياةامامها زلزالها ، ثم لم يلبث ان نعى لها جبران وكانت تضمر له ودا خالصا وتصطفيه .

استقبلت « مى » الحياة على غير الصورة التى تستقبلها بها الفتيات ، كان للصالون والشخصيات التى التقت بها اثرها فى نفسها، وفى تكوين « عقدة » ما .

لقد كان شبلى شميل ويعقوب صروف وهما عالمان كبيران انصرفا الى العلم وحده ، كان كل منهما يضمر لها عاطفة خفية ··· وهما فى هذا السن الكبيرة ، حتى أن شبلى شميل العالم الطبيعى الذى لم يعرف غير مقاييس الأجرام والجاذبية ، تتفجر نفسه بقول الشعر فى حب مى·

اما يعقوب صروف فقد كانت « مى » تبادله عاطفته وهى تكتب اليه « أكتب اليك والشمس تنزل درجات الافق ، وقد سبحتغيوم المساء كما فى بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت فىجميع أطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة وتلك الحرارة، ماأجمل الشجيرات التى انبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم تبسمبأزهارها

الكليلة على جانبى شارعنا ، هل ذهبت اليوم لشم النسيم ؟ أم اكتفيت بالسير فى شارع عماد الدين ؟

ربما كنت الآن سائرا فى الخلاء تنظر الى هذا الغروب الساحر ، وتفكر بى أما أنا فلم أخرج من البيت فى هذه الايام ، التى كثرت فيها المعاكسات .. لو كنت اليوم فى لبنان لقضيت فريضة الحج الى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتى الكبرى هذا الصيف ان ازور البقعة الصغيرة الكبيرة التى بلا ريب سيقيمون فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتى الى تأدية الواجب نحو كبار رجاله » .

وثمة عاطفة اخرى بينها وبين أمين الريحانى ، الذى يصف ادبها بعد أن قرأ كتابيها « الصحائف » و« أشعة وظلال » بقوله ..أدهشتنى فيك وأنت فى خدرك وفى قدس اقداسك شرقية لا تزالين — ادهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لا تعرف يسراها ما تصنع يمناها . فهى لا تسمح لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ولا لقلبها فى مفاوز الشوق ومروج الحب بغير نظرة تذكرها بما فى الحياة لفلسفتها وبما فى الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة وادغال منعشة وأنت يا « مى » مدركة السر فى الاثنين ، ممتعة بالجمالين .

وهناك صورة أخرى من صور العاطفة الجياشة بين انطون الجميل ومى ولعلها واحدة من العوامل البعيدة الأثر فى أزمتها ومأساتها .

لقد التقى الجميل و«مى» على صداقة روحية امتدت من عام ١٩١٥ الى ١٩٢٨ حوالى ثلاثة وثلاثين عاما ، كان كل منهما فى الشباب الغض . وتطورت هذه الصداقة الى عاطفة وحب عذرى ، يقول لها فى بعض كتبه : يلذ لى يا « مى » أن أخاطبك باسمك مجردا من الوصف واللقب ، لأن كل وصف قليل اذا ما قيس لصفاتك ، وكل لقب ضئيل اذا ما اقترن باسمك .. بلغت الى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى الا الانتقال بالفكر الى تلك الشرفة الشاهقة . ذات الفضل العميم على فى مثل هذه الساعة ، فأقف طويلا عن الكتابة ضائعا فى بحار الذكريات بل ان الكلمات تعصانى فأبحث عنها فلا أجدها ... »

وهناك صورة أشد قوة ولوعة وحيوية هى صورة مصطفى صادق الرافعى :

لقد أحب «مى» من أعماقه ومن كل قلبه ، ثم حكم الزمن بالقطيعة ، هذه القطيعة التى لونت أدب الرافعى بعــد ذلك ورســمت له طابعه واتجاهه ، فقد عاش الرافعى على هذا الحب ، وظل مشتعلا فى قلبه ، متوقدا بين جوانحه الى آخر أيام حياته ، وكان يطمع فى أن تصل الأيام بينه وبينها مرة أخرى ، ولكن هل كانت « مى » تبادله هذا الحب ؟

ان هذه الكلمات التى كتبتها « مى » للرافعى تعطى صورة واضحة لحب قوى « سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قومى وعشيرتى أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ، وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لا أخ لى ولا صديق ٠ وسأطلعك على ضعفى واحتياجى الى المعونة ، أنا التى تتخيل فيك قوة الابطال ومناعة الصناديد ٠

سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منــك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأتسمع الى جميع الأصوات على أعثر فيهـا على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفـكار وأمتدح الصـائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفـكارك وسأبتسم فى المرآة ابتسامتى فى حضورى ، سأتحول عنك الى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين اليك لأفكر فيك ٠٠٠ »

وكتب اليها الرافعى « ٠٠ أى بليغ يراك ولا يعرف منك فنا جديدا من حسن معانيه ومبانيه ، ويعرفك ولا يرى فيــك ابداع البديع فيما يعاينه من افتتانه ، لله الحمد الذى جعلنا نتلقى الماء ولم يجشمنا أن نصعد من أجله السماء ٠٠ »

هذه صورة التقت فيها «مى» مع بعض من عرفت من الكتاب والأدباء على عاطفة غير واضحة أو ذات ظلال ، ولكن كيف كانت نهاية هذه الصور فى نفس « مى » ؟ لقد فكر الرافعى وفكر أنطون الجميل فى الزواج فماذا الذى صرفهما ، لقد مات جبران قبل أن يراها وقد واعدها على لقاء لم يمهله الموت ليتمه ٠٠

الحق أن هذه اللوحات تعطى صورة النفس الحزينة المتمردة ، التى تدفعها عاطفة قوية فيـاضة ، ثم ترددها طبيعـة جبلت على الحرص واقامة الحواجز والحق أيضا أن واحدا من هؤلاء الذين استغرقت عاطفتهم حب « مى » فيما يبدو لم يفاتحها صراحة فى الزواج ٠

هذا فضلا على أنها ما أن فقدت أباها وأمها ، وبدأت خطوب الزمن تتناشها حتى انصرف عنها هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها أمسية الثلاثاء ،

لم تجد أحدا منهم يدفع عنها غائلة بعض الأهل الذين كان لهم فيها مطمع قريب أو بعيد . انها كانت تنظر الى هذه الصداقات فى حرص وحذر ، وكانت تريد أن تجد منها واحدة تدعو صاحبها أباها وأمها ، تطلعه على ضعفها واحتياجها الى المعونة ، وتجد فيه الرجل الذى تتمثل فيه قوة الابطال ومصارعة الصناديد ، لم تجد ذلك الا فى الرافعى الذى غلب عليه كبرياؤه حين رآها تؤثر شاعرا معروفا بالحديث دونه فانتفض انتفاضة المجروح ومضى .. وحاولت مى أن تعتذر له فلم يستمع ثم عاش حياته نادما . وقد سبقته الى الموت ..

أما مأساة مى فمجمل (١) الرأى فيها أن بعض أقاربها حاربوها بعد موت والديها ، وكان لهم فيها مطمع لم يجدوا دونه منالا ، فادعوا أنها قد أصيبت فى عقلها ونقلوها الى مستشفى العصفورية فى لبنان .. حيث أصيبت فى جو هذا المستشفى بمتاعب نفسية أضيفت الى حالتها الخاصة فى هذه الفترة حين خلت حياتها من عطف الوالدين وحدث هذا فى الوقت نفسه الذى أخذت تتخطى فيه الشباب الى بواكير الشيخوخة وليس من حولها واحة لها ظلال ..

يقول سلامه موسى أن مى تزعزعت عقب وفاة والدتها ، وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط مهما قلنا انه متمدين فهو لايزال شرقيا .

ولما سافرت مى الى لبنان ، لم يذكرها أحد من أولئك الذين كانوا يتصلون بها وهم صفوة أصحاب الأقلام ، ان أحدا منهم لم يحاول أن يدافع عنها ، فلما عادت لم يزرها منهم الا القليل على قبيل المجاملة .

ويقول سلامه موسى انها عندما عادت من لبنـــان ، كانت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين ، لقد قاست فى المستشفى كثيرا ، ثم عادت فلم تجد أحدا ينتظرها أو يترقبهـــا ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى ، وكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تنشج بالضحك .

ثم ماتت مى ..

ولا شك أن «مى» قد سبقت الزمن حين ظهرت على هذه الصورة.. نقد كان أصدقاؤها يعجبون من صالونها ، وكانوا يحبون فيها صورة المرأة التى يقرءون عنها فى الأدب العربى ، فقد كانت المرأة المصرية اذ ذاك

(١) روت لى هذه القصة السيدة جميلة العلايلى تلميذة « مى » الأولى .

لاتزال محجوبة عن الحياة الاجتماعية ، ويبدو أنه لم يكن من الممكن أن يتزوجها أحدهم ، فقد كانت غلبة الطابع الشرقى التى لاتزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك ٠

ولقد حاول الرافعى أن يتزوج « مى » ولكن شيئا كان يقف فى وجه هذه الفكرة هى أن « مى » على هذه الصورة التى ترضاها لحياتها لا يمكن أن تكون لرجل واحد ولا يمكن أن ترضى طبع الشرقى الحساس الذى يريد أن تكون المرأة له وحده ٠٠٠

هذه قصة حياة « مى » أما أدبها فقد كان لونا جديدا ، ولاشك أن « مى » أنشأت مدرسة أدبية نسوية فى الأدب العربى المعاصر ، تتلمذت عليها الكثيرات وفى مقدمتهن جميلة العلايلى ٠ والكاتبة العراقية « مليحة » وهند سلامه وغيرهن كثيرات ٠٠

وأبرز ما يتميز به أدب مى هو الحـــزن العميق الذى يبدو من وراء هذه الصور الشعرية المشرقة ٠٠ كانت تقول : « ان مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم » ٠

كانت حياتها تجهما وعبوسا ٠٠ كانت حادة صارمة فلم يكن أدبها الا وسيلة للتنفيس عن النفس المكتئبة على صورة تريح الاعصاب ٠

«العيون !٠٠(١) تلك الاحداق القائمة فى الوجود كتعـاويذ من حلك ولجين تلك المياه الجائلة بين الاشفار والاهداب كبحيرات تنطقن بالشـواطىء وأشـجار الحور .

تلك التى تذكرك بصفاء السماء ، والتى تريك مفاوز الصحـراء ، والتى تعرج بخيالك فى ملكوت أثيرى كله بهاء .. وتلك التى يتسـع سوادها أمام من تحب ، وتنكمش لدى من تكره ، وتلك التى تثور بلحظة : أنت عبدى ، والتى تقول : بى حاجة الى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ وتلك التى تبتسم وتتوسل . وتلك التى تقول ألا تعرفنى ؟ العيون . جميع العيون . ألا تدهشك العيون .. »

بدأت مى حياتهـا الأدبيـة بتحـرير فصـول فى جريدة أبيهـا « المحروسة » تحت عنوان (يوميات فتـــاة) ٠٠ كان ذلك سنة ١٩١٥

---

(١) أشعة وظلال أصدرته «مى» سنة ١٩٢٣ ٠

ومن أجمل هذه الفصول مقـال « غرفة فى مكتبة » تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب فى احدى غرف الجامعة المصرية .

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية ، غير أن بعض المحيطين بها نصحوها (١) بدراسـة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ثم أخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لهـا ملكة عربية شجعتها على الترجمة ، فترجمت ابتسامات ودموع ... وغيرها .

« وبعد ذلك (٢) ، بدأ يجتمع عندنا شبه « صالون أدبى » كل يوم ثلاثاء مكثأعواما تحت رئاسةالمرحوم اسماعيل باشا صبرى فاقتبست منه تهذيبا عربيا بمـا كان يلقى فيه أثناء الحـديث باللغـة العربيـة الفصحى .

.. وقال لى الاستاذ لطفى السيد أثناء الحـديث معى لابد لك يا آنسة من تلاوة القـرآن الكريم ، لكى تقتبسى من فصاحة اسـلوبه وبلاغته ، فقلت له : ليس عندى نسخة من القرآن ، فقال ، أنا اهدى لك نسخة منه ، وبعث لى به مع كتب أخرى فابتدات افهم اتجـاه الاسلوب العربى وما فى القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى » .

وفى خـلال الحرب التحقت بالجـامعة المصرية ودرسـت تاريخ الفلسفة وعلم الاخلاق على المستشرق دى جلارزا كما درست تاريخ الادب العربى والدول الاسلامية ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة١٩١٩ باليقظة الادبية والخلق الجديد .

وكان أول كتبها فى اللغة العربية عن « باحثة البادية » صـدر سنة ١٩٢٠ .

« وعلى ذلك أستطيع أن اقول ان اهم ما اثر فى مجرى حيـاتى الكتابية ثلاثة أشياء : أولها النظر الى جمال الطبيعة والثانى القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة والثالث الحركة الوطنية التى لولاها مابلغت هذه السرعة فى التطورالفكرى » .

لقد تركت « مى » عددا من المؤلفات والكتب والآثار المنشورةفى

---

(١) اهم حادث اثر فى مجرى حياتى بقلم «مى» هلال فبراير سنة ١٩٣٠ .
(٢) المصدر نفسه .

عدد من الجرائد والمجلات ، وهى فى مجمـوعها تعطى صورة واضحة للأدب النسـوى الجديد فى أولى صوره الكاملة .

وتعد « مى » بحق رائدة الأدب النسـوى المعاصر ، وما أظن الا أن الكثيرات ممن جئن بعدها قد اتبعن طريقتها فى تصوير النفس ورسم صورة العاطفة ، لقد كان أدب « مى » خالصا للفن لم تعتوره عيوب المناسبة السريعة أو النزعة الصحفية .



مصطفى عبد الرازق

هل نستطيع أن نضع مصطفى عبد الرازق بين الكتاب والادباء.. رغم قلة الآثار التى أنتجها ؟ حقا لقد عنى بدراسة حياة محمد عبده وجلاها وكان مرجعا هاما فى هذه الحياة .. وكتب الى جوار ذلك أبحاثا فى الدين وبعض رجال الفقه ·· ولكن ما علاقة ذلك بموضوع البحث الذى نحن بصدده ·· اننا ندرس هذه الطائفة « من الأدباء » التى كانت الطليعة فى الأدب العربى الحديث ·· فهل يكفى كتابه عن الشاعر المصرى الرقيق « البهاء زهير » ليجعله من هذه الصفوة ·

ولكن مهلا فقد كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصا وفصولا منشورة فى الكتب والصحف لا شك أنها تضعه بين طائفة الادباء المقلين الذين لم يتفرغوا للادب كفن وحرصوا على أن يكونوافى صفوف العلماء الذين عملوا فى محيط الجامعة ... وكان لهم لفيف من الطلاب والمريدين الذين بهرهم حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة الطبع التى كانت من مميزات هذا الكاتب الانسان .

ولكن ماهو السر الذى دفع مصطفى عبد الرازق أن يفرد للبهاء زهير بحثا خالصا ،اننى اربط هذاالعمل الادبى الوحيد بحياته الخاصة فالبهاء شاعر رقيق حيى هادىء النظرات متئد ، لا تطوف بحياته زوابع ولا عواصف ، ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون المغامرات او يدخلون حلبة الصراع .. وهذا الطابع هو صورة منحياة مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئا متئدا ، لا يصول ولا يجول ، على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم من ذوى العمائم ومن الأزهريين .

كان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحيى ، وكان مثلا للاناقة والرقة والهدوء ، كأنما الحياة عنده اغنية جميلة أو موسيقى هادئة ، ولقد عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والاعادة والمراجعة والتغيير والتبديل فى الاثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس ، وهوفى هذا يقول وكأنما يصف نفسه :« أن الجزالة هى التطبع فى شعر البهاء، وان الرقة هى الطبع » ·

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع اعجاب كل من عرفهاو لقيه او تتلمذ عليه .. وما رايت انسانا التقى به او عرفه الا وهو محب له ، كلف بهذا الحب ، ولكن ماذا تعطى هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التى نقراها لمصطفى عبد الرازق ، هل يمكن القول بان وراء شخصيته انسانا آخر قد كان وحيه والهامه مصدرا لهذا الطابع المصقول ؟

لقد بدأ هذا الكاتب حياته فى الازهر ، هناك بين الكتب الصفراء التى تضيق بها النفس والتى تذهب البصر والتى تمنح كل شىء ألا هذه الرقة وهذا السمت الهادىء الأنيق المشرق الذى يخيل اليناانه لا يعرف الحزن ولا الألم .

ونشأ مصطفى عبد الرازق فى الريف من الصعيد حيث الحياة لا تمنح هذا اللون من الأناقة البالغة ، وكل هذا من شأنه أن يصيب الأسلوب بالبلاغة ويصيب الشخصية بالجفاف .

ولعل مصطفى عبدالرازق يصور هذا المعنى حينيقول فىمذكراته عن حياة الازهر « ١ » (اصبحت لا اجد لما احضره من دروس الازهر طعما ولا اشعر بفائدة فى تكوين ملكة أو تهذيب هذه الابحاث المجدبة التى افنى فيها حياتى جاهدا ، ثم ان فى أعماقى قلقا ينزع بى الى أمانى لاموضع لتحقيقها فى هذا الوسط .. ويارحمتاه للمجاورين لايفتأون يقبلون تلك الابدى التى لاهى أيدى النساء الناعمة فتجىء فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هى مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها «٢») .

ولكن مصطفى عبد الرازق كان نسيجا وحده ، شخصيته صيغت وفق هذا الطابع من الرفق والهدوء والاناقة .

والا فهل قرأت مثل هذا لأديب نشأ فى الريف وتعلم فى الازهر ؟ .

« المراة هى المنبع الفياض لما فى الحياة الانسانية من حب هو

---

(١) مذكرات مصطفى عبد الرازق آية من الآيات ولطالما طالب أصدقاء الكاتب بنشرها وحدثنى الاستاذ عبدالكريم الخطيب وهو من أهل العلم والفضل أنه راجع هذه المذكرات فعلا وأعدها للنشر ولا يؤخرها عن الظهور الا مقدمة يكتبها السيد على عبدالرازق شقيق الكاتب ، وأنا لنهيب به أن يفعل ويسرع ..

(٢) مذكرات مصطفى عبد الرازق ــ ٣ مايو ١٩٠٥ .

أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن فى فطرة المرأة نوعا من السحر والخلابة والجمال هو الذى يسمو بخيال أهل الفن الى مايبدعونه فى آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى فى قلوب المستنيرين نار العشق العظيم واذا كان جمال الحياة فنا وشعرا وحبا فان المرأة هى التى تبنى كل مافى الحياة من معانى الجمال » .

فهذه الطبيعة الانسانية المشرقة هى طبيعة الاديب الذى يأخذ من كل شىء ولايطفى عليه شىء من مذاهب القول أو الفكر ، هذا الاسلوب الرشيق الذى يكتبه مصطفى عبد الرازق هو صورة نفسه المشرقة ، هذه النفس التى ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها الى آخر العمر .. ولايمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة ..

« ... ثم يخرج الى ساحة تبسم الانوار فيها والزهر ، وينحدر على درج الى البركة ذات النافورة .. مرتع الاطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواجها ، ومن حولها دكك متفرقة لمن ليسوا أطفالا .. ولمحت فى بعض النواحى سيدة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم . وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة وتتلو ماتكتبه فتنحدر عبراتها وكم يأوى الى هذه البركة من باك ومبتسم ، ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . رويدكم أيها الاطفال العابثون بالماء » .

لقد دخل الشيخ مصطفى عبدالرازق باريس بين صديقين كريمين « كان أحدنا يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معمما » وعاد من فرنسا عام ١٩١٤ .

وكان قد التقى فجر حياته بالشيخ محمد عبده الذى كان بعيد الاثر فى تحويل مجرى هذه الحياة ، لقد كان ضيق النفس بالازهر فلما كتب الى الشيخ زاره فى دارهم ونصح له بأن يستمر على أن يتولى هدايته الى مطالعات فى غير أوقات الدراسة .. يقول :

«اتصلت بالشيخ محمدعبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطرمت فى نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها الشيخ محمد عبده فى عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوخ لم ترضنا معارفهم ولا مذاهبهم » .

والحق أن مصطفى عبد الرازق اخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل

وتلك الطبيعة الثابتة التى لايتحول منها شيء سواء كان صاحبها فى القاهرة أو فى باريس ، فى الوزارة أو فى الازهر أو فى الجامعة .

اخـذ من الازهر اللغة والبيان والرصانة واخـذ من السربون التحقيق العلمى ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظا بطابعه ، وفى يوميات ابراهيم الفزارى التى كان يكتبها عن نفسه ويختفى وراءها قوله « فى الجريدة » :

« .. ان حياتى ليست منطقية ، ان الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة للمزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية ، أما جو قلق لنفس هادئة ، ومعمعة حرون لطبيعة مسالمة ، فليس من المنطق فى قليل ولا كثير » .

كان منذ شبابه الباكر يتطلع الى المجد ويرنو الى آفاق بعيدة لم تكن واضحة وضوحا صريحا فى نفسه ، ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه، وتصورها هـذه العبارات التى كتبهـا فى مذكرات الشيخ الفـزارى سنة ١٩٠٥ :

« أنا استيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ الى مشاركة رفيق فى مطالعة الى انفراد بالدرس حتى آوى الى مخدعى قبل نصف الليـل فاتر القـوة متنبه عصب الدماغ محتاجا الى النوم غير واجد اليه سبيلا وليس لى من سلوة فى ثنـايا هذا العناء المتتابع لا من لذة العمل نفسـه ولا من ثمرته .. ثم ان فى أعماقى قلقا ينزع بى الى أمانى لاموضع لتحقيقها فى هذا الو سط » .

فى هذه السن كانت تغلب عليه طبيعة الحياء التى تعوقه عن ان يثبت ما فى نفسه للناس فكان يكتبه فى الورق . يقول :

« كنت يومئذ شابا تتفتق عنـه غلائل الطفولة ، ولم تكن بنيتى قوية ، ولا اعصابى متينة فضعفت من اثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعرانى سأم من الدراسة فى الازهر واشتد ذلك السـأم حتى صـار ألمـا ملازما ، وكانت طبيعة الحيـاة تعوقنى فى ذلك الوقت عن أن ابث ما بى الى أحد » .

ولكن : هل أذهبت أوربا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء ؟ .. كلا فقد بقى مصطفى عبد الرازق رمزا لهذه المعانى العالية النبيلة من الخلق .

يقول الاستاذ محمود الشرقاوى (١) : « ان مصطفى عبد الرازق

(١) الرسالة فى ١٨ فبراير ١٩٥٢ .

عرف برقة العاطفة والحياء والتواضع وحب الخير والاعتداد بالنفس ، وان هذه الفضائل كانت سببا فى متاعب عاتيــة وقع فيها وهو شيخ للازهر ، وتفسيرى بكلمة متاعب فيه كثير من التساهل ، وعندما يكتب تاريخ هذه الفترة سيعرف الناس اى ظلم واى مضض لقيه الشيخ فى مشيخة الازهر لبعد او تناقض ما بين طبيعته وبيئته اذ ذاك » .

وفى ميدان السياسة كان لا يعرف النفـاق ولا الحيلة ، كانت طبيعة العـالم المترفع طابعه .. وكان فى نظر تلاميذه احد الاســاتذة القلائل الذين حفظوا معالم الحق والخير والجمال كحقائق يمكن التماسهـا فى صورة انسان .

وكان فى دراساته الفلسفية يحدث طلبته عن هذه المعانى ، يقول الدكتور عثمان أمين : كثيرا ما كان يحدثنا الاستاذ فيقول ان هنـاك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الانســانى وثبتت على احـداث التاريخ وهى فلسفة كرام النفوس ، أولئك الذين عاشــوا للعـالم كله لا لأنفسهم ، وظلوا على وفاق مع قانون المجد والسخاء ، وكان أول من رسمها انبياء الشرق ثم اذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء من سقراط الى أفلاطون وأرسطو والفارابى وديكارت وإغاندى . جميعهم قد استطاعوا ان يستشفوا جوهر الدين .

هذه الفلسفة تتلخص فى حالة نفسية يصح ان يطلق عليها الاسم الجميل الذى اختاره ديكارت : اسم «الاريحية » .

وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى الى اسعاد الغير مهما كابدت من عناء .

وصدق طه حسين حين قال ان مصطفى عبد الرازق كان كنزا من كنوز مصر ليس الى استقصائه من سبيل ، كان كنزا فى العلم وكنزا فى الخلق والسيرة والقدوة الحسنة لطلابه واصدقائه والذين عرفوه من قريب او بعيد .

وبعد ... فهل يمكن للآثار التى خلفهـــا مصطفى عبد الرازق أن تعطينا سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التى نشرت فى الصحف على أنها « مذكرات قديمة » ؟

هذه «عذراء الريف» تاريخها ١١ أغسطس سنة ١٩٠٦ نشرت سنة ١٩٣٦ .

« خرجت أصيل الامس الى الخلوات اطوف فى انحاء المزارع حتى

انتهيت الى فجوةفى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيهـا ماء غير آسن ، فألقيت عباءتى فوق تلك الحشـائش العـذبة ، واستلقيت اليها ، وكان معى الجزء الاول من العقد الفريد لابن عبدربه وبهامشه زهر الآداب للحصرى ، وجعلت اداول الكتابين فى القـراءة . واقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة ، وبينما انا مشغول بمحاولة الاجادة فيما أشدو به متأثر النفس بمعانى الاغانى نفسها، اذ اقبلت فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رءوسهن ثم جلسن الىجانب يسمعن غنـائى ، وكنت اراهن واتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن . ولما رأيت انسهن بصوتى غنيت من شعر ابى تمام .

.. ولم يكن يبـدو على جاراتى مظهـر الفهم ، ولكنى كنت ألمح فى أسـارير صغراهن علامات التأثر كلما جعلت نغماتى أشـبه بأنين غرامى والتقت عينى بعينها عند منصرفى » .

وفى اليوم التالى كتب فى مذكراته بقية القصة :

« ... رجعت اليوم الى مكانى بالامس فعادت وحدها ، الآنسـة الفتية شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طولا ، نحيفـة من غير ان يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئـا وما يهبط اهيف ، من جسم كأنما صب فى قالب ، فلست ترى فىخطوطه عوجا ، شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بمـا فيه من طبعـة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال الجمال النسائى فى ثغرها وعيونهـا آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والاحساس الدقيق .

دنوت الى الفتاة يدفعنى شعور بأن الى جانبها حظا من سعادتى، ويركبنى الحياء ، ثم حييتها فردت من غير نفور . قلت : وحيدة أنت اليوم : فأجابت اننى احب الوحدة فى كثير من الوقت .

قلت ان الميل الىالعزلة نزعة النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى السلوان للأنفس المعذبة .. وليكون فى ظلام الحياة نورا ..

قالت اذا كانت الوحـدة آية للألم النفسى فما بالك تحبهـا وأنت منعم ؟ قلت ان من وراء هذا كله مواضع للألم فى قلب غير جامد ، ولبثنا ساعة سكوتا نتبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ حفيف اوراقالقصب تنحسر عن قادم فانتبهنا من تلك السـكرة الحلوة لحب نشرب اليـوم كأسه الأولى .. » . هذا هو مصطفى عبد الرازق فى مذكراته . قلب كبير محب .. هـذه العاطفة الحلوة الصادقة كانت الضياء لحياء الرجل ومادة لأدبه ، كان وهجهـا النفاذ الكامن فى أعماق القلب يمنح أسلوبه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال ، ويعطى روحه هذه السكينة والطمأنينة .



محمد السباعي

صورة محمد السباعى فى نفسى قريبة الشبه من جانب بالمازنى ومن جانب آخر بزكى مبارك ، فيه هذهاللوحةالتى حملها التاريخ القريب للأدباء الذين كافحوا فى سبيل الفن وعاشوا فى مسغبة وقلة ولم يخلفوا من ورائهم شيئا ، كان مدرسا موفور الرزق تتفتح أمامه ابواب المجد فى محيط التدريس والعلم ولكنه آثر الادب وتجرد له ، وحرر نفسه من قيود الوظيفة فأجهده ذلك غاية الاجهاد ، فلم يكن الادب وحده صالحا لان يكون موردا ولا يزال .

والادب الرفيع صناعة شاقة ، ومجهود موصول ، من غير جزاء ولا ثمن ، ومتى كان ذلك ؟ كان فى عهد النحت والبناء ووضع القواعد، وكانت صناعة الترجمة من الآداب الأوربية عنصرا ضخما من عناصر النهضة الادبية التى طلعت فى أوائل هذا القرن ، وكان السباعى دعامة فى هذا المحيط . وكان متحررا فى فن الترجمة من قيود الحرفية ، وكان كلفا بكاتب واحد هو «مونبسان» .

.. ما فتحت البلاغ الاسبوعى مرة فى سنوات ما بعد ١٩٢٦ الا رأيت آثاره وقصصه المترجمة ، ثم عاصرت ذلك السجال الذى وقع بينه وبين زكى مبارك سنة ١٩٣١ . لقد احس فى آخر ايامه غدر الزمان ووجد ذلك الجهاد الطويل الذى عاش له ، مضيعا عند الناس ، وكان يتوق فى تلك السن الى ان يحس بكلمة التقدير والاعجاب ، يده فراغ، وقلبه مشوق الى الحسن والعاطفة ولكنه لا يجد الا ازورارا .. فصرخ صرخته التى أدمت القلوب .

« ... وأصبحت حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة، جافة جدبة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوى ، وأصبح القلم فى يدى أشد بؤسا ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمه أقرب الى انة الثكلى منه الى رنة المسرور » .

تلك هى أزمة السباعى النفسية التى كونت فلسفته فى التبرم بالحياة والسخرية منها وقد نصح للشبان ان ينصرفوا عن الأدب . « واذا

امكن ان يكون هناك دواء يبغض اليهم الأدب وصناعته فنيسألوا عن مكانه ويشتروه بأغلى ثمن » .

وليس هناك شك ان من ينصح بهذا لا بد ان يكون قد ذاق من الادب الويلات ، لقد كان السباعى يعتقد فى مبدأ حياته انه يستطيع الاعتماد على الادب ولكنه أخفق : « انقطعت للادب سنين عدة وامكننى ان أعيش عيشة ليست أسوأ كثيرا من عيشتى الحالية ، وكنت اعتقد بادىء الامر أنه سيجىء يوم أربح فيه من الأدب مالايقل عن راتب أكبر موظف فى الحكومة ولكن هذا الحلم كان سرابا خادعا » .

واشترك السباعى فى تحرير الجريدة ومجلة البيان وجريدةالبلاغ، وكانت الترجمة عصب ادبه ، ترجم رباعيات الخيام نظما ، وكتاب الابطال لكارليل ، وقصة المدينتين لديكنز ، والتربية لسبنسر ، وهو فى هذا يتفق مع المازنى ويختلف معه . فقد أبدع المازنى ادبا غير الترجمة، وكان المازنى يحب الترجمة الدقيقة ، ولكن السباعى كان يبيح لنفسه الترجمة بالمعنى ويعمد الى توشية مايكتبه بمحفوظه من النثر والنظم .

ولقد وصف زكى مبارك ازمة السباعى فقال : « كان السباعى من أهل التضحية فى سبيل الادب ، ضحى بمستقبله وطمأنينته فى بلد لا ضمان فيه لحملة الاقلام ، لقد ابتدأ عمله بالتدريس ، ثم رأى مهنته لا تصلح لغير المتزمتين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين ، فآثر حياة الكتابة على حياة التدريس ، ولكن فى أى عهد كانت هذه المخاطرة ؟ كانت فى عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من اشباه الخواص .

فاذا ذكرتم ايها الناس ان السباعى قضى اكثر من عشرين عاما وهو موصول الجد والكفاح فى امداد الصحف بأروع آيات الترجمة والانشاء فاذكروا بجانب ذلك انه كان يحيا حياة العامل المسخر أو الاجير المغبون.

لقد كان السباعى من أهل المرح . فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء الحياة ولكنه فى اخريات ايامه استسلم الى الحزن والابتئاس واطمأن الى جذلة حلم يذهب ودنيا تزول (١) » .

وقد اضافه زكى مبارك الىكتاب مصر فى ١٩١٠ وهم محمدالمويلحى وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ومصطفى المنفلوطى ووصفه بالبصر باللغة العربية وبالذكاء الحاد .

---

(١) البلاغ ٢٥ من سبتمبر ١٩٣١ .

ويعـد السباعى من أوائل من ترجموا من الأدب الروسى ، وحمـل لواء الترجمة فى هذا العصر الذى كان الأدب العربى فيه يتشاءب ليخرج من قوقعة الجمود والتقليد ، وكان فى أشد الحـاجة الى أولئك الرواد الذين ينقلون روائع الادب الأوربى والآثار والأفكار الغربية ، ويدين لهذه الطائفة بالفضل شباب الطليعة الذين جاءوا على أثرهم .

وبعد فليس فى حياة «السباعى» ذلك الصراع أو تلك الأحـداث الضخمة الفاصلة التى نعرفها فى حياة بعض كتابنا ومفكرينا ، وهى تتسم بذلك الطابع المتئد الهادىء ، وتتلخص فى أنه قد انفصل فى شبابه عن حياة التدريس واختار الصحافة والأدب ، ورأى أنه بذلك قد حقق أملا كبيرا ولكنه ندم فيما بعد على هذه الخطوط الجريئة وظل نادما عليهـا طوال حياته فان الأدب لم يعوضه ما نقـده ولم يحقق له ما كان يحلم به ... وفيما عدا ذلك فحيـاة « السـباعى » هـادئة ليس فيها صراع ولا احداث ولا مفاجآت ، لم يكن من الذين يفترعون المساجلات فىالادب ولا المغامرات فى الحياة ، وانما كان يكتفى بهذا اللون الذى عرف به ، وهو الترجمة ونقل الآثار الاوربية الى اللغة العربية .



جرجي زيدان

ظاهرتان فى حياة جرجى زيدان توحيان بالعظمة وتلفتان النظر الى هذه الشخصية الضخمة التى تركت آثارا قوية متعددة فى الاجتماع وفى الأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتـاريخ ، انه هاجـر فى مطلع شبابه الى مصر والهجرة تعطى معنى القوة والثقة بالنفس ، والرغبـة فى العلا والهروب من الواقع المر الى الآفاق الواسعة ، والثـانية انه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعددة حتى كسب قدرا من العلم اهله ليكون قائدا من قادة الفكر فى مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع الى المجد فى نفس الشاب الذى عاش يكتب للناس ويدرس اسرار الوجود والازلية. هذا البحث الذى شغل اوقات فراغه والذى قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول : « لقد اكتفينا فى هذه الحياة بفخرنا وقصـــورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الاخرى لعلنا ندرك من تلك الاسرار ما يشـفى الغليل » .

ولم يقف امر طموح جرجى زيدان عند هذا الحد بل اولع بالاسفار فقد ذهب الى السودان وسافر الى الآستانة وأوربا وفلسطين ولا شك أن رحلاته قد أمدته بمزيد من الخبرة والتجـربة ، وتنقل بين دراسة الطب والصيدلة واللغات فدرس العبرية والسريانية والانجليزية .

ولا شك ان طبيعة جرجى زيدان العلمية ودراساته فى مطلع الشباب واتجاهه الى العلوم والطب واللغات ، هى التى كونت اسلوبه الكتـابى ورسمت أسس كتاباته التاريخية . وأسلوبه صورة نفسـه ، الاسلوب التلغرافى البسيط الواضح الذى يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ ، فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الاحاسيس ، وكان غير حفى بالاناقة والطعام ، وأسلوبه الادبى يعطينا صورة الاعتـداد فى الطبع ، ولكن هذا لا يمنع انه ذو عزيمة ماضية وقلب وثاب ، فهو قد هاجر من الشام عندما ضيق على المفكرين ومنعت الخطابة وحرمت الكتابة ، عندئذ قصد الى مصر مع من قصدوا اليها ليجدوا مجـالا لاعلان آرائهم .

وكانت حياة زيدان رمزا على الجهاد الصامت والكفاح الدائب فى سبيل الفكرة « ابتدأ (١) زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف. فكان فى اول سنة من سنى الهلال يقف الى مكتبه وقوفا يحـرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ويترجم رجلا مشهورا ويؤلف رواية تاريخيـــة ، ثم يراقب الطبع والتصحيح دائبا على العمل نهارا وليلا ، ثم توفى وكان قبل الوفاة ببعض دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته » .

وصورة أخرى من طبيعته العلمية الراسخة ، انه كان يواجه النقد والحملات بأسلوب الرياضى فلا يضيق بها ويمر بها كريما ، وهذه الآية دلالة على هدوء الاعصاب وضبط النفس والايمان بالهدف .

ويعد جرجى زيدان من رجال الفكر ، وأسلوبه اسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الالفاظ ادوات للمعانى ، ولعل دراسته للطب فى مطلع حياته هى التى منحته هذه الطبيعة العلمية ، ويقف جرجى زيدان على احدى القاعدتين اللتين اشرق عليهما فجر النهضة الفكرية فى الشرق ، قاعدة لطفى السيد الذى رسم صورة المصرية وفتح باب النقد الادبى ، وقاعدة جرجى زيدان الذى أدخل الى الفكر العربى المعاصر الطريقة العلميـــة للبحث ، ووضع الخطوط الاولى للأبحاث التى جاءت بعده فى تاريخ الاسلام والادب العربى » (٢) .

وقد تاثر بطريقته وأسلوبه ســلامه موسى واحمد أمين وعبــاس العقاد . ومضى جرجى زيدان يحرر الهلال منذ سنة ١٨٩٢ الى ســنة ١٩١٤ اى انه أمضى اثنين وعشرين عاما وهو مكب على القلم يكتب ويقرأ ويدرس ويتناول فصول التاريخ القديم واحداث الحاضر حتى اتيح له ان يخرج هذا القدر الضخم من المؤلفات والروايات .

وكان هذا فى الحق جهدا غير طبيعى ، لا يمكن ان يصدر عن انسان عادى مما ادى الى أن يتحطم الرجل مرة واحدة .

ومهما يكن راى النقــاد فى بعض الوقائع التاريخيـــة التى أوردها جرجى زيدان فانه قدم الى الناس صورا للتاريخ الاســلامى فى أسلوب قصصى محبب الى النفوس قريب الى المتوســطين الذين لا يســــــتطيعون هضم المجلدات التاريخية الجافة .

---

(١) « سامى الجريدينى » .

(٢) ولاننسي هنا أثر شبلى شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف .

ويقول الدكتور طه حسين ان جرجى زيدان هو « الذى نقل الى الادب العربى مذهبا من مذاهب الادب الأوربى ٠٠٠ هو القصص التاريخى»

وبعد فان الدراسات التى كتبها طه حسين والعقاد وهيكل ووجدى والجميل ومطران والبشرى والمنفلوطى وجبران على فترات متباعدة أو متقاربة من ذكراه ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب تتلمذوا أو اتصلوا من قريب بآثار هذا الكاتب ، فضلا على أن هـذه الآثار كانت موجهة لفنهم واسلوبهم .

وان منهم من كان يقصد جرجى زيدان ليسأله رأيه فى أمر من أمور الفكر والادب ، يقول الاستاذ العقاد : « .. ومرة أخرى زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر ، وانا مشغول بقراءة شوبنهور لأسأله رأيه فى أصح النظريتين الى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين » ٠

ويصف طه حسين صاحب الهلال بانه « من رجـال هـذا الجيل الساخط الطامح وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه ، وجرجى زيدان لم يكن أرستقراطى الأدب وانما كان رجلا يجمع بين ترعتين مختلفتين اشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان اشد النفع احداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الادبى والسـياسى ومن تاريخ الحضارة ، والثانية النزعة الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها ، وتظهر بنوع خاص فى قصصه وفصوله الثقافية العامة» ٠

ويقول العقاد ان جرجى زيدان من كتاب « ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم ، تقرأ جرجى زيدان فى جميع موضوعاته فاذا هو مطبوع بطابع السداد والاسـتقامة والاستواء ، هى جدول وليست بشلال وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات » ٠

وبعد فان آثار جرجى زيدان تعطينا صورة لرجل مفكر فيه نزعة علمية ، ونظرة واحدة الى انتاجه تبين لنا جوانبه العقلية جميعها ولكنها لا تضع امامنا شيئا عن عاطفته .

ولكن عاطفته تبدو قوية حين نتصـور هذا الانتـاج الضخم الذى أصدره فى السنوات القليلة التى عاشها منذ أنشأ الهلال عام ١٨٨٩ الى أن توفى عام ١٩١٤ ٠

ان هذا الانتاج يدلنا على أن جرجى زيدان لم تكن له صـبوات ، ولم يكن ينفق وقته عبثا ، لقد عاش يقـرأ هذه المراجع الضخمة التى

استقى منها مصـــادر كتبه فى التاريخ وفصـــوله عن الابطال والعظماء وجعل منها مادة قصصه ، لقد عاش يقرأ ويراجع ويســـتقصى ويكتب ويراجع ويصحح ويقدم آثاره للادباء فى الشرق العربى كله .

انك من خلال انتاجه ، تراه جادا متجهما ليس فيه عاطفة ولانزوة ولا لمحة من لمحات الاشواق الانسانية ، كأنمـا وجه عواطفـه كلها الى المطالعات والدراسات ، وقد كان جرجى زيدان الى ذلك ســوى الطبع والفطرة فقد تزوج وانجب وكان يحمل عاطفة الحب لاولاده ويرســل لهم الخطابات فى أثناء سفرهم يوجههم ويدفعهم الى الحياة الكريمة .

ومن هذه الخطابات تنكشف سرائر هذا الرجل الجاد المكافح فى اصرار عجيب وهو يرى أن الانسان الممتاز هو الذى يعتاد الشىء سريعا فان قوة ارادته تجعله يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه ، وأن ذلك دليل القوة والحيوية فى الانسان .

وليس فى حياته حوادث ضخمة سوى هجرته من الشام الى مصر ، وكان هدفه استكمال دراسته للطب فى مصر بعد ان ضعف امله فى الحصول على اجازته من بيروت ، وتظهر عصـــامية جرجى زيدان حين يقول فى مذكراته انه حين أزمع السفر الى مصر لم يكن يملك نفقات السفر ولكنه لم يوفق فى مصر الى دخول مدرسة الطب واتجه الى الصحافة والادب .

وتبدو مظاهر العصامية فى كل مراحل حياته فهو قد كافح حتى تعلم الانجليزية وكافح فى ســبيل دراســة الطب وتعلم اللغتين العبرية والسريانية .

ولعل طموحه هذا وتطلعه الى المجد هو الذى حجب عن ادبه مظاهر العاطفة فقد غلبت عليه النزعة العلمية فى آثاره وبحـوثه ، ولقـد ظل جرجى زيدان يكافح ويدرس ويكتب حتى قضى وهو على مكتبه مخلفـا هذا الانتاج الضخم .

يقول خليــل مطران انه ما عرف رجـلا أجمع للنقيضين ـ الكبر والتواضع ـ منه « لم أشهد ولم اسمع عنه انه شكا دنياه بمحضر من أحد ، ولا انه تمنى على احد شيئا باشارة أو مصارحة كما أننى لم أجده مرة مستقرا للأخذ بثأره من متهجم عليــه فى الصــناعة التى هى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقـــاده شرف غايته » ويقول فى خطاب لابنه : « فى سنك كنت جبانا ولكنى لم أكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهنى الى نقص ولو وجد من ينبهنى الى نقائصى لوفرت على نفسى

تعب سنين وتعجلت النجاح اعواما ، فاستفد أنت من هذه الفرصة ، ان العمل فى الدنيا يحتاج الى جـراة واقدام كما يحتـاج الى الثبـات والصبر » .

ولكن اذا نحن أردنا ان نحدد مكان جرجى زيدان فأين نضعه بين الكتاب والمؤرخين والصحفيين ؟

لقد كتب بضعا وعشرين رواية قصصية جعل مادتها التاريخية من تاريخ الاسلام ، والف عدة كتب عن التمدن الاسـلامى وتاريخ مصر ، وتاريخ مشاهير الشرق، ولقد تناول النقاد هذه المؤلفات بالدرس، وهوجم جرجى زيدان ، وقال البعض انه اعتمـد على بعض الروايات الضعيفة أو المؤرخين الاسرائيليين ، أو رضا بعض المصادر ذات الهوى .

ونسى النقاد أن جرجى زيدان كان يقتحم ميدانا جديدا وأن ادواته بالطبع كانت أقل من أدواتنا الآن ، وأنه فى حدود المراجع التى وجدها بين يديه اسـتطاع أن يدرس تاريخ العـرب والشرق باعتبـاره تاريخ الاسلام .

وليس من شك أن جرجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على اساس انه كاتب عربى يكتب للعرب ، فلا عليه ان اعتمد على رواية دون رواية ، ولا شك انه فيما تناول من حيـاة المعـاصرين كان دقيقا ، لأن ادوات التاريخ كانت تعيش بين يديه وهو لاشـك أول من ابتدع من التاريخ الاسلامى صورة قصصية لطيفة محببة الى النفوس كانت سبيلا الى عقلية العامة لتقبل حقائق التاريخ الجافة .

ولقد كانت آراء جرجى زيدان وافكاره ومذاهبه غاية فى الاعتدال ولا عيب ان لم تكن معالم اسلوبه واضحة وضـوح اسلوب الادباء فهو عالم وباحث ومفكر ، وقد عاش قبل نهضـة الاسلوب البيـانى وآمن بالاسلوب التلغرافى القصير الواضح الذى يصل الى ما يريد ان يقول دون لف أو دوران .

وغاية القول ان جرجى زيدان قد أنشأ مدرسة واضحة الاثر فى الادب العربى الحديث هى مدرسة الهلال التى ابرزت بصورة واضحة فيما بعد احمد أمين وسلامه موسى والعقاد ، ولا شـك أن فى « حديث الاربعاء » و « فجر الاسلام وضحاه » فيهما ذلك الامتداد الواضح لاتجاه جرجى زيدان .



عبد العزيز البشرى

ما ذكر اسم عبد العزيز البشرى الا أحس الذين سـمعوا عنه أو عاصروه انه لم يكن كاتبا بقدر ماكان فى ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة ، وقد رويت عنهالفكاهات أكثر مما رويت عنـه أمثـال الادب ، ولم يخلف هـو فى الادب الا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه « المختار ، فى المرآة ، قطوف » اذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة ٠

ولقد كان عبدالعزيز البشرى صديقا لحافظ ابراهيم لا يفارقه ، وكان من زملاء طه حسـين فى طلب العلم فى الأزهـر ومن رواد صالون آل عبد الرازق ، وهو فى خلال ليله ونهـاره صـورة من الابتسـام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شىء ولا يقلقه أمر ، وكأنما هذهالدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أكدار ، ولطالما عـرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية ان يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجرين الذين تكثر آلامهم ومتاعبهم .

ان الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهريةالخالصة فقد عاش فى أعماقها وخالط رجالها ونساءها ٠

ولكنا لا نسـتطيع ان نأخذ هـذا القـول كما هو فان أسـلوب عبد العزيز البشرى حين يضع قلمه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته، وانما يبدو فى صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة ، والمعـانى الانشائية التى لا تخلص من العبارات الضخمة الرنانة ، ويقينى أنه لو ترك قلمه على سجيته لجاءت معانيه أشد وضـوحا ، ولكنها الطبيعة الازهرية التى لم يستطع التحرر منها او التخلص من آثارها .

وبعد ٠٠٠ فما هو مكان عبد العزيز فى الأدب العربى المعاصر ؟

انه لم يتهيأ لكى يكون كاتبا أديبا ، ولكنه كصنوه المنفلوطى ، كره الأزهر واتجه الى الأدب والقـراءة والصحف ، وكتب فى المؤيد واللواء والظاهر ، ولكنـه آثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه ، وعرف فى المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر ، محدثا فكها لبقا بارع النكتة

حلو الحديث كما عرف حافظ ، وان لم يتــأت له أن يكون فى أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والاشراق اللذين عرفا فى مجالسه كمحدث .

... ولعله كان يؤمن فيما بينه وبين نفسه انه ليس بكاتب، وان كان قد ترك آثارا لاتزال حية باقية وهو يصف طبيعته هذه « .. ان عادة لزمتنى من يوم ضبطت القلم الا أحرص على شىء من آثاره المنشورة فى الصحف فــاذا وقع لى شىء من ذلك أسرعت الى اتلافه تمزيقــا أو تحريقا .

وسبب هذه العادة اننى أول ما عالجت الكتابة كنت ادرك اننى ناشىء لا أجيد البيان فان كانت لى طبيعة فلن يتهيأ لى الاجادة الا بعد شدة وطول تمرين ، وظللت على هذا دهرا وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يثبت للانظار » .

وأمضى البشرى ثلاثين عاما وهو يكتب .. ولكنه كان مقلا . متأنقا لا يوقف نفسه على الكتابة، وانما يرسلها ارسالا فتأتى أحيانا على فترات متباعدة أو متقاربة »

وابرز لون عرف به البشرى فى الادب المعاصر هو تحليل الشخصيات « فى المرآة » وان كانت الاعتبارات الســياسية قد حالت بينــه وبين توقيعها عندما كان يوالى نشرها فى السياسة الاسبوعية .

وتعطينا هذه المرائى صورة واضحة لعبدالعزيز البشرى ، صورة الرجل الخبير بالناس ، الذى عاصر هذه البيئات وعاش فيها ، وعرف من أمورها الخطير والصغير واحاط بما كان يجرى وراء الستار .

ترسم لنا هذه اللوحات تلك الخبرة التى استطاع ان يتميز بهــا عبدالعزيز البشرى كما وصفه الدكتور طه حسين .. « كان رحمه الله من أقل الناس حبا للاستقرار وميلا الى الامعان فى طريق واحد ، ولكنه فطر فى حياته على حب التنقل فكنت تراه مصبحا فى هــذا الحى من احياء القاهرة ملما بدار الكتب او قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من القهوات التى كان الادباء يختلفون اليها فى حى الازبكية فاذا صليت العشاء رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة » .

... وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الاوساط والطبقات وقد اكسبه هذا اللون من الحيــاة خبرة واســعة بالمجتمع

المصرى فى كل خصائصه ونقائصه ، كما افاده احاطة شاملة بما يؤثره ابناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع ســواء كان ذلك فى البيت أو فى المقهى أو فى الشارع . وسواء كان ذلك مما يجرى فىحياة الناس العامة أو فى خلواتهم الخاصة ، ومن ثم كان اروع الكتاب وابرعهم اذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهرى ، وما طرأ علىحياة أبنائه منشتىالطوائف والطبقات ، وما جد فى حيــاة النــاس بين الامس واليــوم من تقــاليد واصطلاحات .

تعطيك «مرائى» عبدالعزيز البشرى هذا الفهم وتملأ نفسك ثقة بخبرته هذه فهو يتناول فيها شخصــيات مصرية ، كانت لامعة اذ ذاك فى محيط الســياسة والادب والفــكر يتناولها فى قوة وفى جــراة وفى سخرية ، الا حين يتصل الامر بسعد زغلول .

وقد صور فنه فى هذه المرائى فى عبارات واضحة .. « .. والغاية التى تذهب اليها « المرآة » هى تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس. والتسلل الى مداخل طبعه ومعالجة ما تدسس من خلاله ، لتقص هذا على القارىء فى صورة فكهة مستملحة » .

ويذهب البشرى فى تصوير المجتمع واحداثه وكل ما يتصل بالناس فيه وله قدرة على ايراد النكتة أو تشــقيق السخرية ، لولا ذلك التكلف الذى يبدو على أسلوبه من حين الى حين .. عندما يريد أن يحيى لفظا ميتا ، وهو فى هذا الجانب قريب الى الرافعى .. كما يبدو قريبا الى المازنى فى تناوله لحــديث المجتمع ، مع قاهرية أصيلة واضحة المعالم حفظها له أنه .. ابن مصر .. اذ لم يخلط فنه بالآداب الاوربيــة ... وموضوعه « الشحاذون والباعة المتجولون » مثل لما نقول وهو عصرى الرأى بالرغم من ثقافته العربية الخالصــة ، وحديثــه عن اهل الفــن والموسيقى والغناء والتمثيل ، يدل على صلة دائمة متجددة قائمة منذ عهد بعيد .

وكان فى مطلع شــبابه صــديقا لطه حسين ، ثم صاحب حافظ ابراهيم حتى لم يكن يرى أحدهما فى مكان ما ، دون أن يكون معه صاحبه وقد ظل طه يحب عبد العزيز ويضمر له الود ويذكره راضيا عنه حتى اذا ما قضى أكرمه حين اصدر له مجموعة «قطوف» .

« .. وانى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبدالرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خــان الخليلى ، وكنــا

نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى ، لنقرأ بعض كتب الاصول او بعض كتب البلاغة ، وكان عبدالعزيز يلهينا بدعابته وفكاهاته عن جد البلاغة والاصول ثم لم يلبث ان ضاق بهذا الجد فانسل منه ، واقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ونزعم لانفسنا اننا نفدى به العقول والقلوب وانى لارانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الفرفة نفسها بعد ان نصلى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد وكان مزاج عبدالعزيز وتندره يصرفنا عن هذا التحصيل كما يصرفنا عن ذاك » .

.. ولعل هذه الصورة تعطينا تأكيدا بأن « عبد العزيز البشرى » كان فى آخر مراحل حياته شبيها به فى أول مراحلها ، هذه النفس العذبة الصافية المحبة للفكاهة والطرافة والحياة ، المقبلة على جمال الحديث وتشقيقه ، المفرقة احيانا فى السخرية ، الراغبة الى الادب تكتبه بين حين وحين وتتناوله على هذه الصورة من التكلف الواضح والمعاناة الطويلة ، ثم غشيان هذه المجالس التى يضطرب فيها الأدباء والساسة ، وقد فرض عبدالعزيز البشرى نفسه على الادب ، كاتبا من البلغاء ذوى الديباجة الرصينة والاسلوب البيانى الى صف الرافعى والزيات والمازنى .

ولو أتيح لعبد العزيز أن يوغل فى الصحافة كما حدث للمازنى أو للمنفلوطى اذن لتحول اسلوبه الى شىء من اليسر والتبسط .

ولست أوافق الدكتور زكى مبارك على رايه فى اسلوب عبدالعزيز البشرى « .. البشرى كاتب « على الطريقة البشرية » كاتب يذكرك كل سطر بأنه أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس ، والكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك الى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك دون أن يفكر فى حملك على الاعجاب بخصائصه الانشائية ، ولو شئت لقلت ان الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب انه من اصحاب الأساليب لأن الكاتب العظيم تصبح الكتابة عنده من وحى الفطرة والطبع ، فأين البشرى كاتبا من هذه المعانى ؟

هو رجل صخاب ضجاج يدق الاجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد ، هل سمعتم بالرحا التى تطحن القرون ؟ هى البشرى ، فى بعض نثره القعقاع (١) » .

لست أوافق زكى مبارك وانما ارى أن البشرى يحرص على أن

(١) فصل من كتاب المختار فى الرسالة مجلد سنة ١٩٤١ .

تكون آثاره غاية فى القول والاجادة ، وهو كلف بالجاحظ محب له الى ابعد الحدود ، ولذلك تردد كثيرا فى أن يواجه الجماهير بكتاب مطبوع ، حتى انه يقول فى مقدمة كتابه فى المرآة « .. وجعلت أعود على تلك المرايا بألوان التهذيب ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى ، وأعالج ما اضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام .. »

واذا نحن قرأنا فصلا من فصول عبد العزيز البشرى .. وليكن « فى الطائرة » مثلا لوجدناه غاية فى الرشاقة والجمال والابداع .

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه « كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره وفى مادته .. »

ومن هذا الفصل العذب والحلو .. ننقل هذه العبارات :

« .. ونسيت أن أقول لك انى حينما دعيت الى ظهور الطيارة تفقدت شيئا مهما جدا وخاصة فى هذه الرحلة ، فلم أجده وكيف لى باصابة مالم يكن ووجدان ما لم يخرج بعد الى الوجود .. ذلك اننى انما تعودت اذا ركبت القطار او السيارة ان أقرأ حزب البر ، فاذا علوت السفينة قرأت حزب البحر ، فمن لى بحزب الهواء .. »

« وأطلق السائق التيار ، فدار المحرك برهة تزيد على الدقيقة والطيارة ثابتة فى موضعها ، ثم بعثها فزحفت على الارض زحفا رقيقا ثم استحال جريا وظلت تدور على اليبس ، ولما طال ذلك قلت لصاحبى لعلنا نبلغ الاسكندرية على هذا الحال برا ، أفتراها اذن سيارة افرغوا عليها هيكل طيارة ، فضحك صاحبى وقال اى ارض ؟ لأنت والله على جناح الريح ، فالتفت وحققت النظر فاذا انا حقا قد جزت بين الارض والسماء من حيث لا أشعر » (1) .

هذه لمحات من آثاره الادبية غاية فى صفاء النفس وحلاوة العبارة ، وهى بعيدة كل البعد عن « طحن القرون » .

والواقع أن أسلوب البشرى فيه رصانة وبساطة ، وكتاباته مزيج من الجد والفكاهة ، وهى صورة من طبيعته الانسانية فقد بدأ حياته

(1) جريدة الاهرام ١٩٣٣ (المختار) .

فى الازهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء ، ثم أتيح له ـ بعد ـ أن يقرأ الأدب الحديث ويتصل بالأدب الاجنبى فيما ترجم منه .

وقرأ « الاغانى » وأولع بها حتى ادمن قراءتها كما يقول الدكتور طه حسين « ففصح لسانه الى أبعد غاية من غايات الفصاحة » .

واتصل عبدالعزيز البشرى بالحياة المصرية اتصالا وثيقا ، وعرف دقائقها فى أفراحها وأحزانها . وكان متصلا بالناس فى مقاهيهم أكثر مما كان عاكفا على القراءة والبحث ، وكان يتصـل بالزعمـاء والاوسـاط والأدباء ، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب ، كما يتصل بالهيئات الاجتماعية ، وقد أمده هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم، كان له أثره فى غزارة مادة أدبه .

ولكن أين المرأة والحب فى أدب البشرى ؟ اننا لا نجدها واضحة صريحة ولكنا نحسها وراء هذه اللمحات البراقة حين يتحدث عن الفن ، ونعتقد أنه عرف الكثيرات فى محيط المسـارح والملاهى ، وكانت له صبوات ، كان يصده عن تسجيلها انه ابن شيخ الازهـر ، ويرده عن الايغال فيها احساسه بأنه لا يلقى ما يلاقيه أهل الوسامة ، ولعل فكاهته وطرافة حديثه كانت تفتح أمامه الابواب وتهتك الحجب .



ابراهيم عبد القادر المازني

فى حياة المازنى ثلاثة أحداث ضخمة ، وفاة أمه وحادث ســـاقه ووفاة زوجته الاولى ، كان يحب أمه فى عنف وبصورة لم تعرف الا عند جبران ٠

« كانت تقول لى لقد كنت أنا مستعدة ان أعمل بيدى فى ســبيل تربيتك فكن أنت مستعدا ان تعمل حتى بيديك اذا احتاج الامر ، وكانت قوية الشكيمة فلا رأى الا رأيها فى الأسرة كلها ، وكانت تكتفى بالنظرة الاولى اذا أمكن ان تستغنى عن الكلمة فكنا نتفاهم بالعيـــون والذين حولنا غافلون ولا يفطنون الى شىء » ٠

ولما حضرتها الوفاة قالت أعطنى ثلاثين قرشا ، ولم تكن بها حاجة الى ذلك وكنت قد أعددت عدتى لذلك اليوم فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى ما يكفى لنفقات المأتم ٠ كانت حاذقة كيســـــة فى سلوكها فلانهر ولا زجر ولا أوامر ثقيلة بغيضة ولا شطط ولا اسراف ٠ ان موتها هدنى فقد كانت أما وأبا وأخا وصديقا » ٠

وعاش المازنى تسع سنوات بعد وفاتها يعيش على ذكراها ٠

أما ساقه فقد كانت له منها عقدة الى جوار عقدته من قصر قامته، ولقد أصيب بالعرج بلا موجب : « كانت زوجتى مريضة ، فأجريت لها عملية جراحية وفى صباح اليوم الثانى وقفت الى سريرها وفى يمناى الدواء ممزوجا بالماء فى كوب من الزجاج ، وحاولت ان ارفعها بيسراى وكان السرير عاليا وأنا قصير القامة فشببت ، فسمعت شـــيئا يطق فظننت الكوب قد انكسر ونظرت اليه فاذا هو سليم ، فحاولت ان ادور على قدمى لارى ما حدث فاذا بساقى اليمنى تخذلنى ولا تحملنىفسقطت على الارض ثمتبينت ان حق الحرقفة هـو الذى انكسر ، وعولجت ثلاثة أشهر ولكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت عظمة الســـــاق عن استقامتها فقصرت عن اختها فكان هذا العرج ٠

كان هذا فى ١٩١٤ فتغيرت الدنيــــا فى عينى وزاد عمرى عشر سنوات فى لحظة وادركتنى الشيخوخة فى عنفوان شبابى فاحتشمت

وصدفت مضطرا عن مناعم الحياة وملاهي العيش وغمرت نفسي مرارة كان يخيل الى أني أحسها على لساني » ٠

وكان الحادث الثالث وفاة زوجته فقد كان يحبها حبا عظيما فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا « وما أنا الآن ؟! حي من الاحياء لا يدرى الناس اني مت منذ سنين ٠٠٠ واني قبر متحرك كشمشون ملتون أو جثة لم تجد من يدفنها ، أو صورة باهتة لما كنته في حياتي » ٠

ولقد عاش المازني حياته كلها ولهذه الاحداث اثرها الواضح عنده ٠٠٠ كان في حياته طموحا الى الحب والعاطفة مما دفع «عبد الحميد رضا» أن يفتعل له خطابات غرام كان لها أثرها في حياة المازني وفي أدبه ، فقد أحس أن هناك فتاة أديبة تحبه وتضمر له غراما وجوى فبادلها العاطفة ولم يكتشف الامر الا بعد وقت طويل ٠

ولقد كان المـازني شديد التعلق بالحيـاة ، وكان في أيامه الاخيرة يفـكر في الموت تفـكيرا متصلا وقد أحس بالموت قبـل وفاته بأسبوعين فكتب وصيته ٠

ولكن المازني بالرغم من هذا الحرمان كان من انفذ كتابنا في مسائل المرأة وأمور الحب والعاطفة والزواج ، ذلك هو المعنى الاول الذى يرد الى ذهني حين أتناول هذا الكاتب بالدراسة ٠

لست أدرى ما هو العامل القوى وراء هذه القدرة ، هل هي القراءة أو التجربة أو الاتصال بالحياة الزوجية أكثر من مرة ؟ ولكني أحس بأنه ما تناول مرة هـذا الموضوع الا وعالجه في نفـاذ ودقة وعمق وفي الوقت نفسه في يسر لا أجده عند كثير من كتابنا المعاصرين ٠

فالمازني هو أحد هؤلاء الرواد الذين صـنعوا هذا الادب المعـاصر وتركوا فيه آثارا قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحاول دراسته، وليس كما حاول هو أن يقول حين صور هـذا المعنى « ٠٠٠ ما مصـير (١) كل هذا الذى سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ، انه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ، فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق وبتسوية الارض لمن يأتون بعدهم ، ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الارض ومهدوها ورصفوها ، من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد ٠٠ وبعـد أن تمهد الارض وينتظم الطريق يأتى

(١) حصاد الهشيم ٠

نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره ، ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة ، ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها رائعة ، فلندع الخلود اذن ولنسأل : كم شبرا مهدنا من الطريق ؟ » ٠

بدأ المازنى حياته مدرسا ـ ثم آثر الصحافة والادب ، فانصرف عن التدريس مبكرا ، وظل يتقلب فى هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاما ، لم ينقطع فيها عن الكتابة والانشاء والترجمة يوما واحدا فهو يقرأ ويستوعب ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود الى قلمه وورقه ٠

« ما أظن الا أن الله جلت قدرته قد خلقنى عن طراز عربات الرش التى تتخذها مصلحة التنظيم ـ خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ويفرغ ليمتلىء ـ أحس الفراغ فى رأسى وما أكثر ما أحس ذلك فأسرع الى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى حتى اذا شعرت الكظة ، وضايقنى الامتــلاء رفعت يدى عن الوان هذا الغذاء وقمت متثاقلا متثائبا مشفقا من التخمة فلا ينجينى الا أن أفتح الثقوب وأسح ٠٠٠ »

وشارك المازنى فى تحرير عدد من الصحف اليــومية والاسبوعية لا يحصرها الاستقصاء، وهى صحف منوعة من الناحية السياسية اتصلت غالبا بجميع الأحزاب والهيئات ، وتطور أسلوبه تطورا كبيرا ، واشترك منذ الشباب مع العقاد وشــكرى فى الدعوة الى المذهب الجديد الذى كان له صدى بعيد المدى فى تحديد معالم الادب المعاصر ٠

وثقف المازنى نفسه بالادب الانجليزى وأوغل فيــه وتحول فيه من لون الى لون ومن اتجاه الى اتجاه ، وكان لعبد الرحمن شكرى الفضل فى توجيهه الى الالوان الرفيعة فيه ٠

يصف هذه الفترة من حياته الفــكرية ٠ « كنت فى شــبابى قليل الثقة بنفسى بالرغم من غرورى ، فكنت أراجع الــكتب أكثر مما أراجع عقلى ، ولا أنظر بعينى بل أفــكر بعقول غيرى ، وأنظر بعيونهم ، ولهــذا كانت شخصيتى مستترة وقلما تتبدى ، وكان الذى يتبدى هو اطلاعى ، أى ثمرة دراساتى وقراءاتى » ٠

ومضى المازنى يشق طريقه الادبى فى قوة، فتقلب فى كتابة المقالات والفصول الادبية والنقــدية والتحليلية ، ونظم الشعر ثم انصرف عنــه واتهم نفسه بأنه ليس شاعرا ثم عرف طريقه أخيرا واستقر عليه عندما بدأ يكتب القصة ٠

وهو يؤمن بأن «لقمة العيش» هى التى ترسم الطريق الذى يختاره

الكاتب كما قال لأحد الذين استشاروه ٠٠ « ستكتب فى السياسة وفى أسعار القطن والبورصة بل وفى هبوط أسعار الخيش وارتفاع أسعار الصفيح اذا أرادت لك لقمة الخبز أن تكتب فى ذلك » ٠

وكان يؤمن بأن الكاتب لا يستطيع أن يجيد فى أكثر من لون : فلا يكون زجالا وقصصيا وشاعرا فى وقت واحد ، وقال لمحدثه « ٠٠ لو أن أم كلثوم رقصت الى جانب غنائها لما أصبحت أم كلثوم ، فلا تحاول أن ترقص وتغنى ، والا عجزت عن الرقص والغناء ، ارقص أو غن ، وستصل حتما » ٠

ولقد كان المازنى ينعى على الادب أنه لا يكفل للمتجرد له حياة أو معاشا وقال : انه لو فتح دكانا لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من انتاج الادب ، وكان يسخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالاقة لبعض بائعى اللب والترمس غير أن رأيه استقر أخيرا على أن يفتح دكانا أدبيا يستعيض به عن دكان الطعمية ، وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحا وان عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذع والسخرية العميقة ٠

والمازنى كاتب فكه ساخر ولكنه عميق الغور واسع الافق، انطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غاية فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتبا استطاع تصوير هذا الشعب فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه كما فعل المازنى ٠

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيدة الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله ، فهى قد جعلته «فار مكتبة» بكل معنى الكلمة ، اذ آثر القبوع والانزواء والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل ٠٠ وقد آثر فى مطلع شبابه أن يسكن فى الصحراء بجوار مقابر الامامين ، وكان لهذا المعنى فى نفسه صورة رائعة « ٠٠٠ بيتى (١) على حدود الابد لو أنه كان للابد حدود ٠٠ الى يمينى الصحراء ٠٠ والى يسارى الصحراء ٠ وفى كل ناحية يرتمى فى فجاجها الطرف ، وفى كل يوم اهبط الى ساحل الحياة واتريث على حفافيها برهة أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ، ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليثوب بسواهم مطوين فى أكفان اثباجه ، محمولين على نقوش من مريد أمواجه » ٠ ويروى عن نفسه أنه فى صباح

---

(١) حصاد الهشيم ٠

يوم عرسه ، دخل الى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الانسانة الجديدة ٠

وأسلوب المازنى له طابعه المحير ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه وهو يحب الازدواج ، وقد كان كلفا به فى فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئا ما ، ويبدو من وراء كتاباته هادىء النفس ٠ مركز الاعصاب ، كانما لا يعرف العصبية ولا يضيق بالحياة، أو كانه ليس هناك ما يزعجه٠

كما يبدو فى كتاباته ساخرا ، مستهينا بالاحداث ، لايحفل بأمر من أمور الدنيا ، ولا يضيق بمنكر من صروفها ، ولا ينزعج لأى أمر مهما جل ، وهو فيما يصور نفسه يستقبل الحياة طروبا ضاحكا باسما مشرقا ويتحدث عن الدنيا كانما قد نفض منها يده ، فلم يعد يطمع فى جمال أو مال أو متاع ، أو كانما قد حيرت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر ٠

ويصور المازنى قراءاته فيقول « ٠٠ (١) كنت أقرأ من قبل الادب العربى وآثار الفكر الاسلامى ٠٠ وباللغة الانجليزية الادب الكلاسيكى ، ولست أحب الادب الفرنسى ورأيى فيه أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقا كالآداب الاخرى ، وقد شرعت منذ بضع سنوات أعيد دراسة الادب العربى على نحو منظم ، وليس لى طريقة خاصة أو وقت للقراءة فكل وقت صالح لذلك ، وكل مكان أستطيع فيه القراءة ولو كان حماما بغير ماء ، وانى بخلاف غيرى لا أدون ملاحظات ولا أضع علامات على الكتب وقد بعت ما اقتنيت منها مرتين ، مرة بخسارة جسيمة وثانية بدون خسارة ٠٠٠»

ويصور زكى مبارك أسلوب المازنى فيقول انه « (٢) بدأ حياته النثرية بالطريقة الجاحظية وهى تقوم على أساس الازدواج ، وقد وفى المازنى لهذه الطريقة أصدق الوفاء فى أمد يزيد على عشر سنين ، ثم جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية ، ثم ابتدع المازنى طريقة جديدة هى كتابة أكثر مقالاته وقت انشائها بالمكتاب فينشىء المقال على أصوات طق ٠ طق ٠ طق ٠ فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازنى الجديد يخالف بناء الجملة عند المازنى القديم فليذكر هذا التاريخ فى حياة هذا الفنان ٠٠ »

ويقول توفيق الحكيم ان المازنى يطلق روحه على السليقة ٠ « فهو يكتب بدون تكلف وبدون أن يراعى قول النـاس فيه ، ان المازنى نفس

---

(١) مجلة المصور ٢٤ من فبراير ١٩٤٤ ٠

(٢) الرسالة ١٠ من نوفمبر ١٩٤١ زكى مبارك ٠

مصبوبة على الورق فى صفاء ٠٠ وليس بالنفس الحبيسة فى اطار الوقار الوقار المصطنع أمام الناس » ٠

ومن أبرز جوانب المازنى ، جانب الترجمة عن الانجليزية فهو بارع فيه الى أبعد حد ٠٠ « لست (١) اغلو اذا قلت انى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر أديبا واحدا يفوق المازنى فى الترجمة من لغة الى لغة ، ويملك هذه القدرة شعرا كما يملكها نثرا ، ويجيد فيها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » ٠

وقد عن للمازنى فى فترة من فترات حياته (١٩٣٣) أن ينكر على نفسه أنه شاعر ، وضايق العقاد هذا فحمل عليه ٠٠

يقول المازنى « انى مخلص فى استضعاف شعرى أو ما كنت أزعمه شعرا من كلامى ، ولقد هممت غير مرة أن أكتب نقدا له ليكف عن وصفى بأنى شاعر من لايزالون يحسنون الظن بى ، ولكن كراهيتى له كانت تصرفنى فى كل مرة من النظر اليه ٠٠ »

ويقول العقاد « لم أر أحدا يجور على المازنى كما يجور المازنى على فضله وقدره ، وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله ، والاستخفاف بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية وأنكر عناء ما يكتب وينظم ، وما عسى أن يكتب وينظم ، وقد تغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد فيها بما قاله فى تصغير فضله وقدره ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم وقبض الريح ٠٠ »

واستشهد العقاد بكلام كتبه المازنى فى هذا المعنى وهو قوله « واعلم أنك اذا انزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس اليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضا ، ويزحزحونك الى ماهو وراءها لان التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والانصاف مجالا للعمل » ، ثم علق على ذلك بقوله « ان المازنى يستخف بعمله لأنه يستصغر حياة الانسان فى جانب آماد الخلود ومصائر الاقدار ، ولأنه ينظر الى أعلى ولا ينظر الى أدنى فيقيس ما عمل بما أراد أن يعمل » ٠

وقد صور الزيات « حياة المازنى الادبية » ٠٠ « عرفته فى خريف ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الاعدادية الثانوية معلمين وكان يومئذ فى مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الادب ويطرق باب الشهرة ، ويحاول

---

(١) عباس محمود العقاد : الاساس : ٧ من يناير ١٩٤٨ ٠

هو وصاحباه العقاد وشكرى أن يشقوا طريقهم الى المجد فى أرض غليظة صلدة يقوم فى بدايتها عقبتان صاحب «الشوقيات» بشعره الرائع ، وصاحب « النظرات » بنثره البليغ ولكنهم كانوا أصحاب معول ومسطرين يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ويبنون بالتجويد والتجديد والدرس » ٠

ووصف الزيات موقف المازنى عندما يشتبك فى خصومة ، يقول « ٠٠ على أنه كان اذا أكره على الخصومة شديد العارضة حديد القلم ، يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة » ٠

وكانت للمازنى فى فجر حياته الأدبية ، يوم أن كان يحمل المعول ، آراء ولكنه عدل عنها بعد ذلك ٠

وقد ظل العقاد والمازنى على صداقة الشباب ، وكانت تقوم بينهما بعض المناورات والمساجلات ولكنها كانت تمضى رقيقة هينة ، وان اختلف المازنى والعقاد فى كثير من آرائهم السياسية والادبية ، وبقيت كلمة « المذهب الجديد » قاصرة عليهما ، فقد كانت هناك مدرسة السياسة، ولها اتجاهها نحو الثقافة الفرنسية، وبقى خلاف خفى بين المدرستين ظهر حينما اشتبك العقاد وطه حسين فى مساجلة « لاتينيون وسكسونيون »واضطرت الصحافة المازنى الى أن يكتب دون استعداد ، يتناولها فى سرعة ويكتب عنها دون مراجعة أو تعمق ٠

وقد منحت الكتابة السياسية « المازنى » الشهرة كما منحتها لكثير من الادباء الذين لو اشتغلوا بالادب الصرف لكانوا أقل درجة فى الشهرة مما هم الآن ٠

ذلك أن أدباءنا كانوا يتناولون العمل الأدبى كفرع من العمل السياسى ، ويفردون له يوما من أسبوعهم الملىء بالصراع الحزبى ، وكان لهذه الكتابات السياسية أثرها فى الاسلوب الأدبى وطريقة تناول الموضوعات ، فقد طغت السياسة على الأسلوب فجعلته ضعيفا ، ليكون قريبا الى نفسيات الجماهير ، كما طعمته بذلك اللون الخصيم فى التعابير وأخشى أن أقول انها خلقت الاغراق فى الخصومة والبعد عن الانصاف ، ولكن المازنى يتميز فى هذه الناحية بأنه لم يكن الكاتب العنيف الثائر ، ولا المعارض الجرىء ٠٠ و لاالمتطرف الذى يمسك بطرف الحبل وانما كان هادئا ، يكتب السياسة بروح الرياضى ويعمل فى ميدانها على أسلوب من السخرية والتهكم ٠

وكان المازنى ضخم الانتاج، يكتب كثيرا ويكتب فى كل وقت ولذلك

فأنت لا تجد أدبه درجة واحدة فى الجودة ، ولا يغض هذا من قدره ، فهو لم يتفرغ للادب وحده وانما عالج الصحافة ، والصحافة مهنة السرعة ومهنة الكتابة العاجلة ٠

فاذا ذهبنا ندرس شخصية « المازنى » من أدبه ، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التى لا تعطى صورة واضحة ٠٠ وقد صور هذا توفيق الحكيم « ٠٠٠٠ ان المازنى أكثر الكتاب تصويرا لنفسه ولحياته وبيته، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له ، ان قدرة المازنى على الخيال والاختراع واختلاط حقه بباطله قد أسدلت حجابا كثيفا على وجهه الحقيقى ، فانا عاجز عن أن استخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة التى تعج بالنساء المدللات والأوانس الرشيقات امرأة واحدة أستطيع أن أقول انها كانت صاحبة الشأن الاول فى حياته ، على أن الذى لا شك فيه عندى ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازنى أن يكتب القصص » ٠

فاذا اتصل الحديث عن المازنى والحب وجدنا قدرا كبيرا من الآثار التى تدل على الفهم العميق وعلى التأثر بهذه العاطفة وبلوغ أعلى مراتبها ٠

« أحببت مرات عديدة ، فانى أبدأ كما قال فى الأستاذ العقاد ٠

أنت فى مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لا يطول الا ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين ــ الى أن أمل ــ وما من واحدة أحببتها الا تمنيت على الله ان تتهيأ لى القدرة لاصلح بعض مالا أرضى عنه ، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى ، حاشا وكلا ، وانما هو اشتهاء الكمال كما أتصوره ولا كمال فى الدنيا مع الأسف (١) » ٠

ويضيف الاستاذ محمد محمود حمدان ــ مؤرخ المازنى ــ « ٠٠ على أن أهم ما يذهب اليه المازنى فى فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الانسانى يتسع لاكثر من حب واحد فى وقت واحد، أو فى أوقات متقاربة ، وان اختلف كل حب فى القوة والنوع والوجهة » ٠

ويؤكد المازنى أن الانسان لا يعرف التوحيد فى الحب ، فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أكذوبة ضخمة وخرافة يلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب ٠

---

(١) الرسالة ــ ١٢ من يوليو سنة ١٩٣٧ ٠

ولكن المازني على كثرة ما أحب لا يؤمن بأن المرأة مصدر وحي للأديب ٠٠ «٠٠ لست ممن يقولون ان المرأة هي وحي الاديب والفنان أو العالم فان في هذا القول مبالغة وتخليطا ، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون في الاغلب المرأة بالمعنى الجنسي » ٠

« ٠٠ ان كل ما أعرفه في هذا الحب ، هو أن المرأة أداة لاراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية ، ومتى استراحت الاعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب ، تيسر التفكير الهادىء المتزن والانتاج في يسر وبغير اجهاد ٠٠ واستطاعت الاعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كلل أو ملل ، أي أنها من هذه الناحية وسيلة للانعاش والتنشيط » ٠

والمازني على نقيض صديقه العقاد ، يؤمن بالزواج وينفر من العزوبة ٠٠ ويقول انه لو كان أعزب لما أطاق الحياة ٠

غير أن الصور الأدبية التي كتبها المازني على هيئة قصص لا تضع أمامنا صورة كاملة لحب كبير من ذلك النوع الضخم أو العاصف الذي يكون عادة بعيد الأثر في حياة صاحبه ، وهو بطبيعته يميل الى الانطواء والاعتكاف، ويعزو ذلك الى شعوره بعيوبه فقد هيضت ساقه في شبابه فقصرت على حد تعبيره ، كما أنه يصف نفسه بسرعة النسيان ولكنه لا ينسى الصور مهما طال عليها الزمن ٠ يقول « وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أنني أنسى الاسماء أول ما أنسى حتى ليكبر في وهمي أنه سيجيء يوم أنسى فيه اسمي، وأنا اتفاءل واتطير ٠٠ وفي بيتي وجهان أكره أن أصبح عليهما ٠٠ أحدهما وجهي ، ويشرح صدري جدا أن أرى الهلال في أول الشهر القمري ومعه شيء من الفضة ، ومن عيوبي اسرافي وجبني ، فكل مال افيده يجب أن تخلو منه يدي في أقصر وقت والا شقيت واضطربت أعصابي » ٠٠ ويقول عن نفسه انه جامد العين فما يعرف أنه بكى لحادث مهما كان خطيرا وقد سئل عن أستاذه الاول فقال انه « الفقر » ويقول انه « هو الذي آتاني القوة والقدرة على الكفاح وعلمني التسامح وعودني ضبط النفس وجنبني أن أحترم المال لذاته » ٠

ويخاف المازني الموت، وقد حاول أن يتداوى منه فنقل بيته الى حيث أجداث الموتى وحيث كل قبر يصير قبرا مرارا ٠ ويفزع حين يرى الشيب قد وخطه ، ولا يجد له علة الا هذه الصناعة القاسية « وأشعر كأني شيخ هرم محطم الاعصاب مهدد الكيان ، ألست صحفيا ، ألا تتقاضاني هذه الحرفة ــ التي أدركتني ــ أن أكتب كل يوم ولا أستريح يوما ، أليس معنى

هذا أنني فى كل يوم حين أريد الكتابة أقسر أعصابى على أن تكون فى حالة لم تتهيأ لها تهيؤا طبيعيا » ٠

ويؤمن المـازنى بأن على الـكاتب أن يرضى ذوقه الفنى أولا دون أن ينظر الى القارىء وأهوائه ، ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكاتب له من الهوى أثر ، ولا يزال الانسان يوحى الى نفسه حتى يصير الامر عنده عقيدة راسخة ٠

ويعد المازنى ثانى رواد القصـة الطويلة فى الادب العربى المصرى الحديث ، ولم يرحل المازنى فى حياته كثيرا ، وهو فى هذا شبيه بصديقه العقاد ، وفى أيامه الاخيرة كان يجلس الى النافذة ليـكتب بين السادسة والعاشرة صباحا وقد آثر الكتابة بالآلة الكاتبة فى سنواته الاخيرة ٠

وبعد فالمـازنى ولا شك رائد من رواد الادب العربى المعـاصر ، قام بدور واضح خلال ثلاثين عاما كاملة ، كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى كان بعيد الاثر فى تطور الشعر والنثر العربى الحديث ٠



محمود تيمور

ولد فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر واستشرف مطالع الشباب والنضج فى الوقت الذى وضعت فيه الحرب أوزارها ، وتفتحت معالم روحه وحاسته الفنية فى « بؤرة » الثورة المصرية ، وقضى أيامشبابه بين درب سعادة وعين شمس ، ونشأ فى بيئة كلها ورق وأدب وصحف وشعر ، حيث كان والده « أحمد تيمور » يعقد صالونه ومن حوله أقطاب الرأى وقادة الفكر ٠

ورأى عمته عائشة التيمورية واستمع اليها وقرأ لها ، وشاهد « محمد تيمور » وهو يتطلع الى المجد ٠

مرض فى أول شبابه « بالتيفوئيد » فلزم فراشه ثلاثة، فكانت فترة حضانة لأفكاره واتجاهاته فتحت له أبواب المطالعة والدرس ، وأتيح له أن يعرف « موباسان » ويحبه ويتعشق آثاره فيتعقبها ، « مما لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية طور جديد فى حياتى الادبية نقلنى من دور التردد الى دور اليقين ومن دور الالمام والهوادة فى التحصيل الى دور الجد فيه والاستيعاب (١) » ٠

ثمسافر تيمور الى أوربا ، وأمضى فترة تزيد على العامين بين سويسرا وباريس ، فكان هذا من العوامل البعيدة الاثر فى تكوين شخصيته «تفرغت للقراءة واتصلت بالادب الاوربى أقرب اتصال ، وطالعتنى أثناء اقامتى هناك مرئيات ومناظر هزت نفسى وتغلغلت فى صميم قلبى، كما أنخبرتى بالحياة ومعرفتى لها قد اتسعت وتنوعت فكان لهذه الحياة الجديدة التى عشتها هناك أثر لا ينكر فى تطور تفكيرى » ٠

وثمة شىء آخر كان له أثره فى تكوين شخصية محمود تيمور ، ذلك هو المرض لقد تالبت عليه الامراض منذ الطفولة ، « واذكر بالخير طبيبى الاول فقد كان يجمع بين الطب والطيبة ، أى بين العلم والصداقة ، فلم يكن يداوى الجسم وحده بل يداوى معه النفس ، كان طبيب الطفولة هذا رجلا نحيفا ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول ، ولا أدرى لماذا يخطر ببالى كلما شاهدت صورة « دون كيشوت » هذا الطبيب أو بالاحرى هذا الصديق » ٠

(١) شفاء الروح ٠

« .. منذ الصغر والعلل تتردد على حتى ألفتها الآن وأصبحت غير غريبة عنى ، منـذ سنين طويلة وأنا فى رقابة الطب فى مأكلى ومشربى ، وفى نومى ويقظتى .. وهكذا كنت أحس فى أعماق نفسى بنقص يحتجزنى عن الاستمتاع بما ينعم به غيرى .. هذا النقص يدفعنى ولا يزال يدفعنى الى أن استكمل فى الخيال ما عجزت عنه فى الواقع » (١) .

هل كان هذا المرض القابع فى الأمعـــاء ، بعيد الأثر فى شخصية محمود تيمور وأدبه ... « أنا أحرص أول ما أحرص على ألا يعكر صفو هذا الجو ذلك المعكر الاعظم .. وأعنى به المرض الذى اتخذ معـدتى محلا مختارا له يبعث الى بمعابثاته النكدة ، فلا يعنينى حين أجلس الى مكتبى أن اتفقد القلم والقرطاس بقدر ما يعنينى أن أتفقد أعوانى الأمناء من علب وحقاق وقوارير ، فهذه علبة الاسبرين ، وهـذا حق البيكربونات ، وتلك قارورة النعناع .. »

ومع ذلك فانت حين تطالع آثار محمود تيمور تجد صورة من الهدوء المطبوع والعاطفة الخصبة ، والبساطة الواضحة .

تقرأ له فترى روح البشـاشة والفرح والمرح ، تكاد تنتظم أدبه كله روح التفاؤل والاشراق ، فلا انطواء هناك ولاتعقيد ولا تشاؤم ، تجد عنده التفاؤل بالأشياء والطبيعة والناس ، وتجد عنده الأضواء المشرقة لا الظلال القاتمة .

وتبدو « حياة » تيمور هادئه مطردة من وراء أسلوبه وفنه ، وليس بها مغامرات أو فجوات ، ويبدو هو شديد الحيوية ذاخر المشاعر ، يسكب نفسه على الورق فى صراحة ووضوح .

وأنت ترى أناقة ملبسه حين تطالع أسلوبه الانيق ، ولكنك لا تلبث أن ترى روح « الشعبية » واضحة ، فيخيل اليك أنك ترى محمود تيمور وهو يختلط بالحياة ويشاهد ويسمع ويتأمل .

لا يضع تيمور على عينيه منظارا أسود حين ينظر الى الحياة ، أو حين يرسم الحياة .. بل على عكس ذلك تماما .. تراه مشرق النظرة يتوسم فى الحياة الضياء والنور والطلاقة ، ويرى أبهى جوانب الحياة : الحب والجمال .

« .. ان النزعة المسيطرة على الوجود هى النزعة الخيرة ، وان بذرة الخير أصيلة كامنة فى تلافيف هـذا العالم ، وهى التى تسير به دائمـا الى

(١) شفاء الروح ٨

هدف معين هو منفعته ورقيه، وبذرة الخير موجودة في كل الكائنات صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها ، فهذه الذرات التى يتكون منها جميع مافى العالم من كائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض ، وتسير حول نفسها فى حركات هى أوفى ماوصل اليه النظام والتناسق ، أى أرقى ما وصل اليه « الجمال » وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية ، أى بقوة « الحب » ٠

وهو فى مجموع ما كتب رجل مثل عليا يحب زمهرير الحياة ويغرم بالصحراء ويحب الاجواء الهادئة الساكنة التى تعيش على الانتاج ويذهب فى البلاد طولا وعرضا ، يستقصى ويبحث ويتصفح الوجوه ، يرى جمال السكون عند بحيرة « ليمان » وشامخات العمائر وناطحات السحاب فى نيويورك ، ويستمع الى هدير الامواج الصاخبة عند شلالات « نياجرا » ، ويستشف روعة الطبيعة فوق صخور لبنان ، فاذا دخلت « صومعته » أو حرمه المقدس طالعتك التماثيل الثلاثة التى استوحى منها قصصه «فرعون الصغير ، بنت الشيطان ، احسان لله ٠٠ » وهو معجب بهذه التماثيل مشغوف بها ، وهو يربط بين قلمه وفنه بوشائج عاطفة صادقة حين يقول « ربما كان حكم الكاتب أيسر مثل نضربه ، فيه يتبدى ذلك الضرب من احساس الفنان بالجماد فقد تتوثق الالفة بين الكاتب وقلمه فلا يبغى بديلا به ، وان بلى فى يده » ٠

وتبدو حياة تيمور وليس فيها أحداث ضخمة ، أو مغامرات جريئة، الا حين امتحنه القدر بفقد ولده الذى لا يحب هو أن يسميه ٠

لقد هز الحادث تيمور هزا عنيفا ، ولكنه استطاع أن يستمسك وأن يصمد ٠٠٠ وكان من آثار هذا المصاب كتاب خالد هو « أبو الهول يطير » حيث يبدو تيمور فى صورة الصوفى المؤمن ٠٠ حين يطلق نفسه من كل قيد ، ويصور آلامه فى حنان بالغ ٠

« ٠٠ لقد تطايرت من بيننا يا بنى ٠ كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سدادتها فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيبا تشيع فيما حولنا من اجواء ٠

أى بنى ٠٠ ها هو ذا كل شىء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد الا أنت وأنا وحدنا ، لقد تزايلت أصوات الاحياء بماتحمل من تحية وتوديع وبقيت أنت ، أنت الوحيد الذى ما زلت أراه ، انك لتملأ على الرحاب والآفاق ، وانى لأحس بوجودك احساسا كله صدق ويقين ، حقا ان الموت لأعجز عن أن يفرق بين حبيبين ٠٠ »

أعتقـد أن « الرحلة والسفر » من أهم العـوامل فى تكوين محمود تيمور الادبى فهو قد تردد على أوربا خلال ربع قرن مرات متعددة ، وتركت فى نفسه جبالها ومناظرها وجمالها آثارا لونت قصصه وآثاره ٠

« جلسة رخية تجاه بحيرة ليمان ٠٠ فى لوزان ٠

أتطلع الى هذا المشهد الخلاب الذى يتألق لعينى تحت أشعة الشمس وأرى القرى تتناثر على الشواطىء ممددة فى صعودها على سفوح الجبال ، تكتنفها غيرها فى وهج الظهيرة ٠

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الاصيل ٠

وكأنما هى تخلق خلقا جديدا حين تنسدل استار الظلام أو تتكاثف أطباق الضباب » .

وفى الاقصر .. وفى نيويورك ، وفى باريس ، وفى لبنان تجد محمود تيمور متأهبا ليسجل خواطره .. يقول « لم ار منظرا بديعا وقعت عليه عيناى الا وضعته فى مذكراتى وانا نشوان به ، ولطالما جذبتنى زوجتى من يدى وقالت لى : « لقد جئنا للترويح عن النفس لا لكتابة المذكرات »

يقول محمود تيمور ان الشخصية التى أود أن أكونها وأن أعيش حياتها هى شخصية « أمين بك » الملقب بالمملوك الشارد .

« حسبنا ان نتأمله هائما مزدحم الحياة يجالدها وتجالده وتدفع به أمواجها صاعدة هابطة ، وهو منتعش بذلك الذى أصابه دون سـواه فى تلك النكبة العارمة التى لم تبق من زملائه ولم تذر ٠ ولعل ماحببه الى واغرمنى به، هو تلك الصورة الغامضة التى اختتم بها حياته، صورة الفارس الجسور الذى كان له وحده دون زملائه المماليك جميعا حظ الافلات من منجل الموت الحاصد » .

واحب كتب محمود تيمور اليه هو « أبو الهول يطير » « ٠٠ فقـد احسست اننى اكتبه بدمى ، وانا أودعه شعورى الصادق عن رحلتى الى أمريكا ٠٠ » أما القصة التى يجب أن يكتبها فهى قصة النيل بوصفه الها من آلهة الأساطير ، فان قصته خالدة شبت مع الزمن وستبقى الى الأبد ٠

ولا تعطينا آثار « محمود تيمـور » شـيئا واضحا عن حيـاته الوجدانية ، ولعل طبيعته المعتـدلة الهـادئة جاءت على نفس النسق فى العاطفة أيضا ، فلم يكن من ذوى المغامرات او الذين أحبوا حبا من ذلك النوع العنيف الحاد ولكنه يؤمن بأن المرأة ملهمة للأديب والكاتب

« المرأة ملهمة الاديب والفنان فى كل مكان فكيف يشذ الامر فى مجتمعنا المصرى ، وان البحث الدقيق فى حياة الادباء والفنانين ليكشف عن جوانب فيها للمرأة وحى وتأثير خاص أو عام ، والادب فى خصائصه وظواهره يختلف قبل خروج المرأة الى مجال حياتنا الاجتماعية ، عنه بعد خروج المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة ، فقد اتسم الادب فى الماضى بالحرمان والكبت والتظاهر بالتحشم والتوقر ، اما الآن فيتسم بالحرية والصراحة والانطلاق ، فهو اليوم أدب سفور ، للمرأة فيه تأثير ايجابى وكان بالامس أدب حجاب ، للمرأة فيه تأثير سلبى ، ومن هذا يتضح ان الأدب متأثر بالمرأة على أية حال (١) » .

ويسير على نفس نهجه فى الاعتدال حينما يؤمن بالزواج ويرى انه ضريبة الحياة : « على الشباب أن يبادر الى الزواج متى كان فى استطاعته ان يتحمل تكاليف الاسرة ويضطلع بما لها من تبعات فتلك هى ضريبة الحياة وذلك هو الحجر الاساسى فى بناء المجتمع .. »

وهو يؤمن بان الزواج لا يحول دون المجد « وليس يحول الزواج دون المجد ، وربما أعان عليه » .

وهذا كله يعطينا صورة من رجل سوى الخلق ، سليم الرأى فى الحياة الاجتماعية ، لم يعتزل الحياة الزوجية ، ولم يندمج فى التجارب العنيفة ، وبقى على اعتداله وبعده عن الاسراف .

بدأ محمود تيمور حياته بقراءة الف ليلة ، وجبران ، وعيسى ابن هشام وصدرت « زينب » أول باكورة قصصية مصرية فأعجب بها .. ثم اتجه الى موباسان وتشيخوف وتورجنيف ..

وهنا أنتج أول آثاره سنة ١٩٢٥ « الشيخ جمعه » و « يحفظ فى البوستة » وفى خلال ربع قرن تحول اتجاه محمود تيمور القصصى وتنوع .

تحول من القصة القصيرة الى الطويلة ثم المسرحية ومن الواقعية الى التحليلية .

ويقول نقاده ان قصة « الاطلال كانت ثغرة بين مرحلة الواقعية ومرحلة السيكولوجية » (٢)

ولعل تيمور قد رسم فى قصة الاطلال صورة حياته فى مطلع شبابه

(١) فى حديث مع المؤلف : الصباح ٢٧ - ٣ ١٩٥٣ .

(٢) محمد أمين حسونة .

حينما تدفع الثورة الكامنة المتأججة الى الخروج من حالة القلق والحيرة الى عالم الجسم وجحيم الشهوة (١) .

ويقول تيمور انه يقرأ المقالة أو القصة أو الخبر فى احدى المجلات فتكون نتيجة ذلك أن يخرج بموضوع جديد لقصة جديدة .

وهو لا يكف فى سبيل فنه عن الاتصال بالمجتمع والتغلغل فى أعماقه وقصة « عم متبولى » استوحى الكاتب موضوعها من مشهد لفت نظره أثناء جولاته فى أحد الاحياء الشعبية لرجل يبيع اللب والفول السودانى.

ويقول الدكتور طه حسين « ان محمود تيمور يصدر عن طبيعته دون تكلف ، فاذا لم تجد فى قصصه هذا اللون أو ذاك ، فانما هو يستجيب لطبيعته الهادئة المتحرزة الوقور التى عاشت فى كنف التقاليد ورعاية الأوضاع . وبعدت عن النزق والاندفاع فى شبابها وراء المطامع والأهواء ، وهى اذا اتجهت نحو الحب او الاعجاب بالجمال ، فانما تدخل هذا الباب مستأنية مترفقة متوقرة .. أو قل متحفظة » .

ومحمود تيمور فى آثاره الاخيرة ، فى فترة استكمال أدوات الفن ، وتبلور الصور والمعانى ، والوصول الى السن التى يعرف الكاتب فيها معالم طبيعته يتخذ منحى التحليل النفسى المستفيض للكشف عن البواعث الخفية التى تدفع الابطال الى ما يقومون به من أعمال دون الوقوف عندما يبدو من الاسباب الظاهرة لهذه الأقوال التى تجرى على ألسنتهم أو التعليلات التى يتذرعون بها لتبرير ما يقومون به .

وبدأ فى قصصه « اليوم خمر » و « حواء الخالدة » يلتهم الاجواء التاريخية دون أن يتخذ من مادتها أو أساطيرها دعائم قصصية .

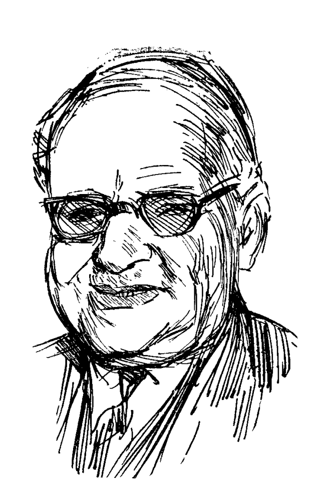
ومن التاريخ الاسلامى «ابن جلا» و «عنترة» وهو فيهما يستجلى بواطن هذه الشخصيات ويصور نفسياتها ويعلل تصرفاتها وينتزع منها نماذج انسانية حية بغرائزها الخالدة .

وهو يستجيب استجابة طبيعية لما يجرى حوله ، وقد ضمن مسرحياته ألوانا من هذه الاستجابة القوية ، وقد أوحى اليه العهد السياسى البائد فى مصر مسرحية عنيفة هى « المزيفون » صور فيها الحالة العامة قبل الثورة الحاضرة .

وفى مسرحياته «كذب فى كذب» ، «أشطر من ابليس» ، «قناصل» صور جوانب من المجتمع وحلل طبائع من الناس على وجه يدل على كفاية واضحة فى فهم السرائر والشمائل .

---

(٢) محمد أمين حسونة .



احمد حسن الزيات

أخرجته المنصورة بلدة الشعر والجمال ، وتفتح شبابه على ضفاف النيل ، حيث تغدق الطبيعة في العطاء ، وتنثر العطر والندى في طريق الفن والشعر ، وكان في الأزهر أحد ثلاثة أقاموا مدرسة التمرد على القديم « طه حسين ـ الزيات ـ محمود زناتي » .

وخلف الأزهر غير نادم ، وتعلم الفرنسية ، وسافر الى فرنسا حيث درس القانون والآداب .

ومن جمال المنصورة وبلاغة الازهر وثقافة الفرنسيين بزغ أدب الزيات ناعما هادئا .

وبدأ الزيات حياته مدرسا ١٩١٧ وقد طال اتصاله بالتعليم الى أن أنشأ الرسالة سنة ١٩٣٢ وهو لم يتصل بالصحافة على غرار طه حسين والعقاد وغيرهما فلم يكن من طبعه هذا اللون من الصراع السياسى ، وانما كان أديبا تجرد للأدب والحب والجمال وقد ترجم فى خلال هذه الفترة روفائيل وآلام فرتر ووضع كتاب تاريخ الأدب العربى .

وفي خلال فترة العشرين عاما ١٩٣٢ ـ ١٩٥٢ ، كانت « الرسالة » هى المجلة الادبية الاولى فى الشرق ، ولها أثرها البعيد فى تطور الأدب خلال هذه الفترة .

ابرز ما يأخذ بالبال ان « الزيات » رجل هادىء كالجدول الرقراق كلما اتصل قلمه بموضوع ، لاترى فيه الحماسة الفوارة ولا العصبية الهائجة ولا الجرأة ، لست أدرى هل السر فى هذا أن الزيات بدأ كتاباته هذه التى نشرتها الرسالة وجمعت فى « وحى الرسالة » فى حوالى الاربعين ، وهى سن تعطى الكاتب التركيز والاعتدال والرسوخ ، ولست أدرى لو أن الزيات كتب واتصل بالحياة وبأمور المجتمع قبل ذلك بعشر سنوات هل كان يبدو هادئا أو ثائرا ؟

لكن الذى يمكن القطع به أن الزيات هادىء بالطبع ليس راكدا أو آسنا ، ذلك أنه فى سن الخمسين وبعدها قد تناول الكثير من

الموضوعات فحملها الكثير من الحماسة النابضة بالحياة بالرغم من الهدوء الواضح فى مظهرها ٠

ولكن الزيات الى هذا كله لم يكن ثائرا ، ولم يكن من كتاب الادب الانقلابى كطه حسين مثلا ، ولم يكن عنيف النقد كالعقاد ، وهو الى هذا الهدوء معتدل ، متزن مترفق على أسلوب المدرسة الفرنسية وعلى طريقة الصالونات ٠

واذا قلت ان عاطفته متحركة فأنت لاتعدو الحقيقة ٠ انه مفتـــون بالجمال ، تمتزج فى بيانه الروعة والجمال والحسن والفن ، انه هو الرجل الذى خلق مدرسة جديدة فى الأدب تعنى باللفظ المونق والعبارة العالية وهو الذى جدد روح الادب العربى ، لقد بدأ حياته كما يبدأ أى شاعر بالحب فترجم آلام فرتر ، ثم عندما بلغ سن الرجولة العاملة نقل الحب من الذاتية الى الموضوعية يقول الزيات : «لماذا ترجمت فرتر ؟ فى ١٩١٩ كنت اجتاز هذا الحين شبابا طريرا حصره الحياء والانقبـــاض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده واحساس مشبوب يتوقد بالجمال وقلب غريب يتحرق ظمـأ الى الحب ، فالطبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ، وكان فهمى لكل شىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسده الخيال وزور نتائجه المثل الاعلى ، ثم فجر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه ملح ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ ، وقلبى الصادى قد ارتوى ، وحبى الغائر قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى حتى ذكرنى الزمن الغافل فاقام فيه عقبه ، اذ اصطدم الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة » ٠

« فلما قرأت «آلام فرتر» سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح وأحسست حالا غير تلك الحال ٠ كنت اقرأ ولا أرى فى الحادثة سواى وأشعر ولا أشعر الا بهواى وأندب ولا أندب الا بلواى » ٠

هذا هو « الزيات » فى شبابه حياة كلها حب وكلها عاطفة ، ولكن هل هو الحب الاول ؟! ٠٠ لقد رسم الزيات صورة الحب الاول فى احدى قصصه :

« ذهبت منذ قريب الى القرية فى شأن من شئون الاسرة وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقى نظره الى مورد الماشية من الترعة ثم رده وعلى عينيه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته

الباسمة كل أدوات الاستفهام فنظرت حيث نظر فاذا امرأة فى أخريات الشباب تورد بقرتها الماء وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء ٠

دع لى صورة الفتاة التى عرفتها واحببتها ٠ انها لاتزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفولة ناضرة كالصبى ساحرة كالشبيبة أما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب » ٠

هذه قصة نور ، قصة الحب الاول ٠ وبعد ، فما تزال للزيات فى ميدان الحب قصص :

« عرفت فى باريس سنة ١٩٢٥ الآنسة «فرناند» ابنة احد القضاة وكانت طالبة بالسنة الاخيرة فى كلية الحقوق ، وكان لها بالمستشرق المرحوم كازانوفا أستاذ الادب العربى فى الكوليج دى فرانس صلة قرابة أو صداقة ، فعرفنى اليها لتكون فى مدينة النور ماكانت بياتريس لدانتى فى جنة الفردوس» ٠

« أدينا الامتحان معا ثم أرسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها فزرنا معابد الطبيعة فى فنسين ، وسان كلو وفنتيلو ، وحججنا محاريب الفن فى اللوفر والاوبرا وفرساى ، وكنت يومئذ أترجم «روفائيل» فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نسقا عجيبا من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق ، لا يدع للخيال الوثاب مسبحا ولا للنفس الطماحة رغبة ، ثم حم الفراق فرجعت الى مصر ولحقت هى بأهلها فى روبان وكان بينى وبينها بعد عودتها رسائل مسكية المداد وردية الورق تؤلف كتابا من شعر القلب والعقل » ٠

وعاد الزيات الى مصر وسافر الى بغداد ، وعاد الى مصر فاستقر بها وأنشأ الرسالة ووصلته بآلاف القراء والقارئات ٠

وكنا نحس بين حين وحين بخفقة قلب ، هنا أو هناك ٠

ولعل قصة ضخمة عنى الزيات بكتابتها فى فصول سبعة كانت بعيدة الأثر فى نفسه تلك هى « قصة فتاة » ٠

هذه الفتاة التى كانت تحب الزيات فى عنف وقوة وتراسله من قريتها فتكتب له على هذه الصورة من الهوى العنيف ٠

كيف كان موقف الزيات الرقيق القلب العاطفى الوجدان من فتاة محرومة تضع آمال عاطفتها فى الكاتب الرقيق ٠

ان منطق القصة يعطى صورة الزيات وهو يهتز عاطفة ويحاول أن يوازن بين العاطفة والعقل وبين قلبه ورسالته وبين أن يكون حبيبا وأن يكون أبا أو ناصحا هاديا ٠

انها ولا شك عاطفة هزت الكاتب من الاعماق ، والا فلمـــاذا أولاها هذا الاهتمام ورسم لها هذه الصورة القوية الجبارة ٠

وثمة صور أخرى من صور العاطفة فى حياة الكاتب الوجـــدانى الرقيق « تذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجميل فيما مضى من عمـرى فقد سجل أكثر ضحكات القلب وحسبى منها ميلاد ولدى رجاء والرسالة»

« ألقى الى البريد الجوى فى صباح هذا اليوم غلافا من العراق على ورقه طابع الذوق وعلى خطه سمة الظرف، فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصورة ٠٠ قرأت الرسالة والامضاء ثم تأملت الصورة والاهداء فاذا هما آنسة من أوانس بغداد المثقفات وقد أولعت بالادب وأغرمـت بأهله ، ثم عدت أقرأ وعدت أتأمل وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل حتى غاب حسى فى سكرة من سكرات الاحلام ، ولم أكد أستوعب الرسالة بفكرى وأناقش موضوعها حتى تناولت القلم وفتحت الالبوم وأجبت على رسالة برســالة ورددت على الصورة بصورة ، ولكن هيهات واأسفاه ، لن تجيب رســالة عقل على رسالة قلب ، ولن ترد صورة قبيحة على صورة مليحة » ٠

والاستاذ الزيات ما زال على ارتفاع السن شاب القلب ، وهو يصور السعادة بهذه الصورة الحلوة الرائعة ٠٠ « وما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو يريد ، ان كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمة من شفاه بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تثير ما أظلم من قلبه وأن تفرج ما اشتد من كربه ، ان السعادة فئات وفترات فلا تكون فى واحد صحيح ولا تدون فى زمن متصل ٠٠ »

وهو يصور الحب فى صورة موضوعية تدل على طول الخبرة وسعة الفهم وعمق التجربة ٠

« العلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث أخلاقه وترقق طبعه ليسكن اليها » ٠

« ٠٠٠ للحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة ، ومن ذلك كان جمال المرأة داعى الرغبة خافض الجناح حى الطبع ، والرجل مزهو

على المرأة يدل بحيازته لها ويتعزز بقيامه عليها ، فهو يريدها ريحـــانة لا قهرمانة ، وحبيبة لا جليبة ، لها سلطان ولكنه رفيق ، وفيها اباء ولكنه رقيق ، ومن ثم كان جمالها مزيجا من الوداعة والعزة ، وخلطا من الضعف والدلال وطبعا من الهيبة والنبل ، وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع من نظراتها ، وتشـــيع فى قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل ، وهو بطبعه ولوع ، فيمتع بنعمة اختياره ولذة ايثاره ٠

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل انما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر ترعاه معه وفيه على غير علمه،فكان من مزايا جمالها أيضا أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرة وجهها وتشرق على الأخص فى تلك الفطرة الوديعة التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور ، وتبدد ظلام الكآبة وتشعل خمود الحب ٠٠ »

وهو المحب الذى يهتف عندما يتنازل دوق وندسور عن ملك بريطانيا فيقول : « ٠٠ ياكافرين بالشعر والاحلام والحب » ٠

واذا تحدث عن الربيع كانت المرأة معقد حديثه ٠ « أجـل شىء فى ربيع القاهرة أصائله وأماسيه ، ففى هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الانسان فتملأ الجو عطرا ، والعيون سحرا والقلوب فتنة ٠ »

واذا تحدث عن العيد ، أرجع السر فى أن حياتنا الاجتماعية ممسوخة وأعيادنا مشوهة ، الى غيبة المرأة عن المجتمع الاسلامى ، « ذلك السبب هو على ما نكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش ، وجهومة فى البيت وسآمة فى العمل وفوضى فى الاجتماع ٠

٠٠ كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، فاذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندى روح الحديث ، وفى الحقل مجمع الأفئدة ، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح ، ومجتمع مهذب ، وحياة طيبة وأسرة سعيدة ٠٠ »

ومما يتصل بهـذا ما يرويه من أنه قرأ كل قصص الحب العـــالمية هلويز الجديدة ورينيه ، وأتالا ، وأدولف ، ودومنبيك ، وماريون دلوم ، ومانون ليسكو ، وغادة الكاميليا ، وجرازيلا ، وروفائيل ، وجان دكريف

فاذا أضيف الى هـــذا فضوله عن شاطىء البـحر ، وحبه للقرية

وأحاديثه عن ذكرياتها في أيام الفيضان والعيد ورمضان ، وفصوله عن الاقصر وخواطر مهاجر ، أمكنك أن ترسم الصورة الكاملة لهذا الكاتب الذى تمرد باكرا على العمامة والأزهر وأسلوب الجمود فى الدرس والأدب ، واتجه الى اللباس الافرنجي والجامعة واللغة الفرنسية والأدب الغربى وباريس .

ومما يتصل بالحياة العاطفية للأستاذ الزيات . فقدان ابنه « رجاء »

« ... كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل وأقبض المجد ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس، وأكسب المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية ، كنت كالصوت الأصم لا يرجعه صدى ، والروح الحائر لا يقره هدى ، والمغنى المبهم لا يحدده خاطر ، فلما جاء رجاء وجدتنى أولد فيه من جديد ، فأنا أنظر الى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم الى الوجود بثغر الاطفال . وأضطرب فى الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع ويجذبه من أمامه طموح ، شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطا فى جسمى ، وبالأمل القوى ينبعث جديدا فى نفسى ، وبالمرح الفتى يضج لاهيا فى حياتى ، وبالعيش الكئيب يتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ..

.. ثم انقضت تلك السنون الاربع فصوحت الواحه ، وأوحش القفر وانطفأت الومضة وأغطش الليل وتبدد الحلم وتجهم الواقع ، وأخفق الطب ومات رجاء » .

ثم لا يلبث أن يتحدث عن ابنه رجاء وكتابه العراق ..

« .. والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ، وعلى أخيه الذى أبدعته. جاءا معا فى الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما بردا ولا عبوسة ولا كآبة ، وذهبا معا فى الربيع فلم أحس بسبب فقدها دفئا ، ولا طلاقة ولا بهجة» .

« أودى بهما القدر العابث خداعا وغيلة ، فسلب العين ريبة الحذر وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة ، دب للطفل الموت فى وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاما عارضا ، فاذا هى الخناق القاتل ، ومشى للكتاب القدر المحتوم فى ركام من الورق المتروك فذهب به خلسة الى النار المبيدة .. »

ويتصل بالعاطفة فى الزيات عاطفة أخرى هى عاطفة العروبة والشرق والاسلام فهو الذى جاهد بقلمه فى سبيل تحرير الشعوب العربية ودافع عنها فى كل مناسبة واحتضن الدعوة الى اصلاح الأزهر .. ولم تمنعه

سعة أفقه وهو مؤلف « عبقرية الاسلام » أن يرثى « اسماعيل أدهم أحمد » .. عندما انتحر فى أغسطس ١٩٤٠ . ولما أراد أن يصف خلته وانحرافه داوره بلباقة : «لقد حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق هى كل شىء فى تقدير المعلوم واكتناه المجهول باعتماده فى أدبه على العقل القعيد،الذى يرى ولا يطير ، واتكأ فى الفلسفة على الغرض البعيد الذى يطير ولا يرى».

ويمكن القول أن اتصال الزيات بالأدب الفرنسى لم يمسخ شخصيته ولم يدفعه الى الانحراف ، وانما يظهر اعتداله فى أنه يحتفل بعيد الهجرة والميلاد سواء ..

وبالرغم من أن الزيات شاعر فى أسـلوبه الأخاذ ، فانه منصف لا يميل مع الهوى ولا يقول كلمة السوء ولا العبارة النابية ، فاذا أراد أن يقول شيئا فيه ما يغضب دار ولف ، وحاور وداور ، حتى يقول ما يريد فى صيغة لا تجرح ولا تسيل الدماء . وهو يصور طبيعته فى قوله « ... لست بطبيعتى وتربيتى رجل صالون .. »

وصداقة طه والزيات من الصداقات الادبية المعدودة فى تاريخ الأدب العربى ، يروى الزيات كيف عقدت مى مجلسا للصلح بينه وبين طه حسين فى فترة أصيبت فيها الاخوة المصقولة ببعض الفتور .

« .. ثم (١) مسحت مى بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين فاذا الماضى يعود كله ، واذا الحاضر يذهب كله ، وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصبا واستمرت مع الشباب ، وتوثقت مع الزمن فلما نال منها العهد المجرم الذى نال من كل شىء جزعت الآنسة الكريمة فيمن جزع وظلت تتحيز المناسبة لسفارة الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة الأمس . كان حب صديقى وحبى لحظة من الذكرى تعيـد غارب الحكم وتكسر عادية الجدل .. »

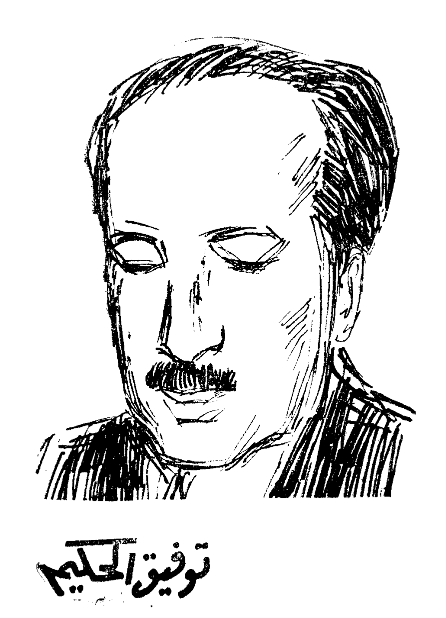
ويصف الدكتور زكى مبارك أدب الزيات بأنه صورة من نفس رجل ممتحن بنفسه وبالدنيا وبالناس،فأدبه الذى ينشره اليوم قد يكون صدى لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة ، والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره وماضيه لأنه مشدود الى قافلة الوجود ..

---

(١) الرسالة — فبراير ١٩٣٥ .

وبعد فالزيات له أسلوبه الواضح الذى يفصح عن نفسه ، وهوأحد أبناء المدرسة الازدواجية التى ابتدعها الجاحظ،وسار بمنهاجها المنفلوطى والرافعى والمازنى وطه حسين على أساليب متفرقة وطرائق متباعدة ٠

ولقد حرص الزيات على قلمه ، نقيا فلم يدفعه فى حماة السياسة ولم ينزل به الى مستوى الصراع أو الخصومة ، ومضى وفيا لطبعه وفنه ، يكتب فى أناة وينتج فى ترفق واعتدال ٠


توفيق الحكيم

سئل توفيق الحكيم اذا كان قد وصل الى ما كان يريد فقال : «ربما ظفرت ببعض ماكنت أريد أو بكثير منه ، ولكن : هل ماكنت أريد هو ماكان يجب أن أريد ؟ اننا نحدد مطالبنا عادة عندما نكون فى مطلع الحياة ، أى فى مرحلة الشباب ، فمن يضمن لنا أننا فى هذه المرحلة كانت لنا الحكمة الكافية والتجربة الضرورية للارادة الصحيحة ؟ »

ويبدو توفيق الحكيم صادقا فى تصوير نفسه بعد أن ارتفعت به السن ، وقد بلغ الآن الخامسة والخمسين : « أظن اننى أحب نفسى الآن أكثر مما كنت أحبها أيام الشباب ، لأن القلب يصغر كلما كبرنا الى أن يأتى الوقت الذى لا يتسع فيه لغير أنانيتنا والعياذ بالله . »

وقرأت له تصويره للسيدة زينب فخيل الى أنه انما يقصد نفسه اذ يقول « .. ما من مرة وقع فى شدة الا وجد العزاء عند ضريح السيدة زينب ذى القضبان الذهبية ، كل نجاح ظفر به فى الحياة هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة انما هى ابتسامة من شفتيها ، انه يتخيل هيئتها ووجهها وملاحتها ويعتقد انها فى السماء بردائها الابيض انما تنظر اليه دائما وترعاه » .

ولما ذهب الى سالزبورج فى العام الماضى -١٩٥٣- أخذ يصور قمة المجد التى وصل اليها « وفى سالزبورج رأيت الحيطان تحمل اعلانات حمراء كبيرة تحمل اسم « بجماليون » واسمى وأسماء الممثلين النمسويين وفى تلك اللحظة يرجع بى الزمن القهقرى ثلاثين عاما يوم أبصرت لأول مرة اسمى واسم رواية لى أخرجتها فرقة عكاشة على مسرح الازبكية ، يا لها من رحلة بين لحظتين ، كم أنفق فى هذه الرحلة من جهد وعمل ويأس وأمل وكفاح فنى .. ولكن ..

لقد كان قلبى يرقص فى اللحظة الأولى أما لحظة اليوم فان القلب هادىء متئد يبتسم ولا يفرح . ما الذى حدث له ..

عرفت أشياء كثيرة ولكنى لم أعد أعرف الفرح الفارح الراقص الذى يجعل من الفنان طفلا ، واذا فقد الفنان طفولته فقد نضارته . لا أظن أنه

قد كتب على كل فنان هذا المصير ، أن تجعل منه الايام دوحة قد تظل ولكن ليس يجرى فى قلبها عصير ٠٠ »

وعندما تحدث عن الحب قال : « ان الحب كمرض الحصبة يصيب الصغار ويندر أن يصاب به من جاوز الثلاثين ويمكن مد المدة الى الاربعين

ان هذا الكائن المنقرض ، يخيل الى أننى رأيته فيما مضى ، ولكن لماذا يتخذ الحب هذه الاهمية فى حياة الناس ؟٠ انهم يريدون أن يقرءوا عنه فى الكتب ويسمعوه فى الاغانى ويشاهدوه فى القصص ، والويل للروائى أو الشاعر أو السينمائى الذى يهمله ٠ انى أحب بقلبى الذى فى رأسى وبعقلى الذى بين جوانحى ٠٠ »

هذه ملامح شخصية توفيق الحكيم اليوم ٠٠ فى الحلقة السادسة من عمره ٠٠ بعد أن بلغ من الشهرة مداها وتحول من الفن الخـالص الى الصحافة الى الأدب الذى يرضى القراء ٠٠ الى أن أصبح هذه الشخصية الجديدة ٠٠ انه ظفر ببعض ما كان يريد وهو يحب نفسه الآن أكثر مما كان يحبها أيام الشباب ، والسيدة زينب هى منجاه فى الشدة واليها يرجع كل نجاح له فى الحياة ٠٠ ومهما وصل الى المجد فان القلب هادىء متئد يبتسم ولا يفرح أما الحب فهو كمرض الحصبة يصيب الصغار ، وهو يحب بقلبه الذى فى رأسه وعقله الذى بين جوانحه ٠

حقا ما أبعد الفرق بين الشباب وبين ارتفاع السن ٠٠ فى الافكار والآراء ٠٠ ان كل شىء يتحول وينتقل من وضع الى وضع ٠

وبعد فما هى حياة توفيق الحكيم فى أدبه ؟

وهل المصادفة البحتة هى التى قدمته الى الناس ، عندما طبع أصدقاؤه مائة نسخة من قصة « أهل الكهف » سنة ١٩٣٣ فاستقبلها الدكتور طه حسين استقبالا ضخما فخما ، وصفق لمؤلفها ووصفها بأنها أول محـاولة لابتداع الحوار فى الأدب العربى ؟ ٠

ان كل الأسانيد التى أمامى تدل على غير ذلك ، تدل على أن «توفيق الحكيم » ولد كاتبا ، وانه بدأ محـاولاته مبكرا ٠٠ ثم اختفى وذهب الى باريس وعاد وهو يحمل الآمال العريضة فى الظهور والتبريز ٠

« ٠٠٠ لقد طرح فى مصر مهنة المحاماة والقانون ليمضى فى حمـل القلم ، ويقول للناس أشياء يعتقد أنها قد تنفعهم ٠٠ وما كان يريد غـير ذلك ، ولا يطمع فى حياته فى غير ذلك ، فلا الجاه العريض كان يغـريه

ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ، ولا الثراء كان يجـــذبه أو يقنعه أو يرضيه ٠٠ وعندما يضع انسان لحياته خطة ، فان القدر أحيانا يأخـــذ وينفذ (١) » ٠

وهذا يعني أن الرجل كان يفهم نفسه ويرسم طريقه ، بل ان توفيق الحكيم يؤكد « أن أكثر الكتاب يعيشون حياتهم أولا ثم يكتبونها بعـــد ذلك ، أما أنا فأكتب حياتي أولا ثم أعيشـــها بعد ذلك ، يا له من شيء مخيف » ٠

٠٠ اذن فتوفيق الحـكيم ان كان قد لمع في الجـو الأدبي في ذلك التاريخ وبذلك الكتاب فانه لم يكن أول محاولاته ٠ وانما هو رجل عاش في برجه العاجي هذا الوقت الطويل ، يقرأ ويراجع في أناة وهدوء ٠

«٠٠ كان مبدأ ظهوري في الجو الادبي نشر أهل الكهف عام ١٩٣٣ولم تكن هذه الرواية بالطبع بدايتي الأولى في هذا اللون من التأليف بل كانت ثمرة تجارب عشرة أعوام أو تزيد سابقة على الشروع في وضعها ، فلقد كنت قبل ذلك أكتب للمسرح المصري روايات تتلاءم وجمهور تلك الايام ٠

واني وان كنت أوثر نسيان الروايات الاولى ، الا أني لا يجب أن أنكر فضلها على تكويني الفني الاولى فلقد كانت هي خير محـــاولاتي على ممارسة الحوار ثم اتسعت آفاقي باتساع نطاق مطالعاتي في أصول هذا الفن في الآداب الاجنبية ٠

وضاقت بي مصر فرحلت الى فرنسا بعد أن كنت سجلت اسمي في جدول المحامين ومهدت أمري لحياة مجدية ، ولكن أي شيطان في أعماق نفسي كان يدفعني الى اضاعة حياتي وراء فن لم يكن له بمصر أي احترام ٠٠ وهناك في فرنسا قرأت كثيرا وكتبت بالفرنسية نحو أربـع روايات تمثيلية مزقت الواحدة منها تلو الاخرى تمزيقا عقب الفراغ منها فلم أكن قد اهتديت الى شيء يذكر ٠

ولبثت في هذا الجهاد زمنا لا أجد في آدابنا العربية مرجعا لهـــذا الفن ولا مصدرا محترما يجعلني أبدأ منه أو أضيف اليه انما كان على أن أخلق البداية خلقا وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها «أهل الكهف»٠

وقد اشتغلت بالقضاء فأنساني هذه الخزعبلات ودفنت محفوظاتي في حقائبي طويلا أنتقل من بلد الى بلد ومن قرية الى قرية ٠

---

(١) توفيق الحكيم في « فن الأدب » ـ

حتى وقعت مخطوطة أهل الكهف فى يد قاض مثقف من زملائى كان يذكر أيامى الماضية فى مسارح القاهرة (١) » ٠

هكذا ظهر توفيق الحكيم فجأة ولكنه كان قد استعد لذلك سنوات، ولذلك سرعان ما قدم للأدب العربى المعاصر عددا ضخما من المؤلفات فى سنوات قلائل ٠

اتصل « توفيق الحكيم » منذ شبابه ببيئة الفن ، ولم يتخلص منها بعد ذلك ، حتى فى هذه الفترة التى قضاها فى القضاء والنيـــابة ، كان مرتبطا بالفن بأكثر من سبب ٠

ومنحته باريس « بيئة الفن » سرها وروحها ٠٠ أعطته باريس آيات الفنون والآداب «التى تملك عليه أمره كله فلا يرى غيرها» فان المعرفة غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف لم تلبث أن طغت فى نفسه على المعرفة المباشرة ٠

كان يفضل البقاء فى باريس مكبا على القراءة والتحصـــيل على أن يصاحب اخوانه المصريين الى شاطىء بحر أو قمة جبل ٠

ولكنه كان يحس فى باريس بأن أيامه لا مذاق لها « ٠٠ فهى كالماء الحراق أجرعه على غير ظمأ ، المستقبل أمامى محاط بالضباب ، يخيل الى أنى هويت قبل الأوان كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج ٠٠ »

وفى باريس عمد الى تحصيل الثقافة من منابعها الحقة وبدأ محاولة فى سبيل الخلق الفنى ٠

« والحوار » هو موهبـــة توفيق الحكيم الأولى ٠٠ فيه تتجلى ملكته الاساسية وأسلوبه المركز ، أشبه بالبناء الدقيق ٠

وهو قليل التغير والتقلب فى الآراء والاتجاهات (٢) يؤمن بأن حياة الكاتب متصلة بحياة انتاجه « ٠٠٠ وأن فى أعماق كل « خلاق » شـــبه غريزة داخلية تدفعه الى الانتاج البطىء أو السريع تبعا لطول حيـــاته أو قصرها (٣) » ٠

ويصف أسلوب تفكيره بأنه هندسى « ٠٠٠ صـــدقت يا أندريه فى

---

(١) الرسالة : توفيق الحكيم ٩ يونية ١٩٤٢ ٠
(٢) مجلة الاثنين ـ توفيق الحكيم ٠
(٣) البرج العاجى ٠

فولك أنى أصلح أن أكون رياضيا • وأن أخطارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية (١) » •

•• وهو من الأناة بحيث يجب أن تمر فترة على آرائه ، « تتيح لى أن أراجع أفكارى القديمة بعين جديدة لأرى مدى استحقاقها للمضى فى الحياة معى ، انها هى التى ينبغى لها أن ترغمنى على تحمل تبعة بقائها ، فهى وحدها التى تملك بيدها أمر حياتها » •

وقراءات توفيق الحكيم منوعة •• « ولعل أمتع الكتب التى قرأتها كانت من الكتب التى تبحث فى فلسفة العلم • وأنا ممن يميلون الى القراءة ببطء كبير ، وقد أقرأ صفحة واحدة من كتاب ثم أقضى ساعة فى تأمل ما قرأت والتفكير فيه ، وقد لا أقرأ فى الشهر أكثر من كتاب واحد لهذا السبب ، وأقرب الكتب الى نفسى هى كتب التأمل والفلسفة العميقة،وأنا لا أقرأ منها الا القصص العالمية الممتازة دون غيرها ولست ممن يحتاجون الى مكان خاص أقرأ فيه ، فقد أقرأ وأنا سائر فى الطريق أو جالس فى المقهى أو عندما أرقد فى سريرى لأنام (٢) » •

ويتصل انتاج « توفيق الحكيم » بنفسيته وشخصيته ، مهما بعدت مظاهره ، ويدور حول نفسه فى كل ما يكتب ، ويعيش حياة أبطاله فهو الشخصية الاولى فى كل قصة كتبها وهو البطل الفعلى لكل مسرحياته ، يبدو الابتكار واضحا فى انتاجه • « الساقون الثلاثة » و « شهر زاد » •• الملك والوزير والعبد الأسود •• كل منهم يحب شهر زاد على صـــــورة تختلف عن حب الآخر : حب الغريزة ، وحب الحضارة ، وحب الحيرة •• وشهرزاد تحب هؤلاء جميعا ، ولكن : هل حقا أن أدب توفيق الحكيم غير عميق الجذور وان ذلك يرجع الى أنه قليل الخبرة لم يتصل بالمجتمع وعاش فى برجه العاجى ، ولم ينغمس فى الحياة ولم يتمرس بأهوائه وآلامه ؟ •

قالوا ان نشأته تختلف عن نشأة طه وزكى والعقاد ، هؤلاء الذين اتصلوا بالبيئات المختلفة ، وعرفوا الفقر وكابدوه ، وشربوا كئوس العلقم ، وكدوا وذاقوا قسوة الايام ، أما هو : فقد ولد وفى فمه ملعقة من ذهب • وذهب الى باريس ••• ولم يغامر مغامرة واحدة •• ولم يلبث أن اتخـذ مقامه فى البرج العاجى •

---

(١) زهرة العمر •

(٢) المصور ٢٤ فبراير ١٩٤٤ •

« ... وهكذا أعبر الوجود الارضى نهارى فى برج عاجى ، وليلى تحت مصباح أخضر .. »

الحق أن توفيق الحكيم قد مارس الحياة على صورة غير الصورة التى مارسها بها العقاد وزكى وطه .. وأنه قد اتصل بها فى يفاعته الباكرة فى صورة العاشق ، وفى شبابه فى صورة المسافر ، وفى رجولته فى صورة المحقق .. ثم جاءت تجربة « الرباط المقدس » .

.. هذه التجربة التى لاشك فى أنها واقعية ، لبروز عناصر الصدق والقوة والواقعية فيها .. فأكملت شخصية الفنان وأعطته سمته ومظهره .

« لم (١) تكن حياته كلها غارقة فى النظريات أو التحرير والتحبير، ولكنه غرق زمنا فى الحياة من حيث هى حياة بواقعها وحلوها ومرها وطيبها وخبثها ، ومن ذلك يوم كان يعمل فى القضاء ويجوس خلال الريف والمدن ويتصل بالحاكمين والمحكومين ويطلع على خبايا المجتمع وخفايا الصدور والأسر والاكواخ والقصور .. »

واستطاع توفيق الحكيم أن يعطى لنفسه صورة تختلف عن صور الكتاب والأدباء .. انه راهب الفكر ، التائه فى بيداء الحياة ، المعتزل للناس فى برجه العاجى وتحت مصباحه الاخضر .

« حياتى الليلية ، حياة رحبة مضيئة فاخرة بشتى الألوان ، ميدانها لا فى المراقص وحانات الليل ، بل فى حجرتى المنزوية ، ومقعدى الواسع قرب خزانة كتبى ، حياة الليل عندى هى حياة النفس فى اتصالها النبيل بما أقرأ فى ساعات السكون ، وفى اصغائها الطويل الى الخواطر والأفكار التى تغمر عالمى الصامت (٢) » .

وقد رسم صورة واضحة .. لهذه الحياة الغامضة ، المليئة بالوحدة فقد أراد أن يجرب الحياة المستقرة ، غير أنه فشل فى تجربته .. «ورجعت الى وحدتى .. تلك الوحدة الباردة التى تحيط بى من كل جانب ، فما أنا فى الحقيقة دائما سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد وضعت بداخله يد المصادفة اناء يغلى ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الافكار التى تخرج من نافذتى الى حيث تصل أحيانا الى جموع الناس ، فاذا دخلت

(١) فن الادب .

(٢) تحت المصباح الأخضر .

امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لى ما سوف تلقيه فى هذا الاناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك .

... وهكذا أنفقت حياتى متنقلا تائها ليس لى مكان معروف ولا عنوان دائم فما تركت فندقا لم أنزله ولا نزلا لم أهبطه حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائر .. فاردت أن أجرب الحياة المستقرة فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة ، يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والاهرام وعنيت بأثاثه وأعددت فيه مكتبا أنيقا وخزائن للكتب واقتنيت سيارة ، وأقمت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ..

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاما فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلى ..

أما السائق فلا يريد أن يصغى الى رجائى كلما طلبت اليه ألا يسرع فأنا أبغض السرعة ، انها تمنعنى من التفكير ولطالما أكدت له أنى لست متعجلا شيئا ولا شىء فى الوجود يستعجلنى فأنا عدو الزمن والوقت،ولم أحمل ساعة قط فالوقت عندى ليس من ذهب بل من تراب .

.. وانطلقت بمفردى حرا من جديد . أنتقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع وأقفز الى عربات الترام وسيارات الاتوبيس ، وأختلط بالناس وأمتزج بالجماهير فأحسست كأن الدم يعود حارا الى عروقى ، وان قدمى قد فرحتا بلمس الارض من جديد ، وأن فكرى قد عاد الى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالاقدام فى كل مكان ، وملاحظة الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلا خلف الزجاج ، وجعلت أقف على بائع الاذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة ، فأحادثه وأباسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة وأصغى الى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة فاشترك معهما فى السمر والحديث ، ورأيت الكناس يسامر البائع طمعا فى كوز والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال ، فان الشغل شغل فى عرف التجار فاشتريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحدا واستبقيت لنفسى الآخر فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديثه العامة البريئة اللذيذة » .

.. من هذه الصورة ، ترى توفيق الحكيم فى اهاب «راهب الفكر» كما شاء هو أن يرسم هذه الصورة .

وبالرغم من أن توفيق الحكيم فرنسي الأسلوب فان ثقافته متوعة بين الانجليزية والفرنسية ٠

وهو يحب الجو الغربى ، المطر والسحاب ، والوطن الروحى ٠

ويؤمن بارستقراطية الثقافة ولا يحب الترخيص « ٠٠ واذا الاديب

قائم فى المجتمع بين طبقتين ، كل منهما تجذبه بعنف ، الاولى تقول أنت للجميع لا لطبقة خاصة والثانية تقول له الزم مكانك بيننا نحن الخاصة والا هبطت الى الحضيض » ٠

وأدب توفيق الحكيم صورة لنفسه ، فما موقفه من المرأة والحب ٠ لقد أطلق عليه لقب « عدو المرأة » فهل تحول عن رأيه فى المرأة كما تحول عن بعض آرائه الاخرى « لقد تغيرت كثيرا وتنـــازلت عن أغلب أفكارى وآمالى لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة (١) ٠٠٠ »

لقد أحب « توفيق الحكيم » فى فجر شبابه ٠٠ هــــذه الفتاة التى روى قصتها فى عودة الروح ٠٠ الفتاة التى كان يحبها الشبان الثلاثة ٠

هذه العاطفة التى رسمت طريقه ٠٠ ووجهته الى قرض الشـــعر ، ولكن « الفتاة الاولى » ٠٠ تركت فى أعماقه آثارا ظهرت فيما بعد واضحة حين صور رأيه فى المرأة والحب ٠

لقد سخرت الفتاة منه ومن أصحاب كانوا يتقربون اليها وكانت هى تسخر منهم ٠٠ وتلهو بهم ٠٠ وتعبث بقلوبهم ٠٠ فلما صادفها شاب آخر من جيرانها أكثر وسامة وغنى ٠٠ بذلت له حبها ٠

هذه « العقـــدة » كانت أول ما صدمه فى حياته العاطفيـــة فتركت أثرها القوى باقيا ٠

فاذا تحدث بعد ذلك عن المرأة بدا رأيه مظلما متشائما ٠٠ عبوسا « ٠٠ لو (٢) خيرت ، لا أريد جنة أو نارا من صنع المرأة ، انى أحرص كل

---

(١) زهرة العمر ٠

(٢) مجلتى ٠

الحرص على أن أكون سيد نفسى وأن أصنع لنفسى نعيما وجحيما لاتعرفهما المرأة ، ان جنتى بالطبع لن تجد فيها حية ولا تفاحا ، فهى جنـــة هادئة متواضعة ، جنة الفكر والتأمل والخلق والابداع ، اذا دخلتها المرأة حلت فيها الفوضى وانفرطت عقود درها المنظوم وتحطمت تماثيلها المرمرية ، كما أن جحيمى مملوء بعذاب الشك والقلق الفكرى ، وعذاب القصور عن ادراك الكمال الفنى ، آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها، فأنت ترى أن نفسى « منطقة مقدسة » لا أسمح لامرأة بالدنو منها ، ولقد ازددت مع الزمن شدة فى ذلك حتى رأيت أن أقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى فى حياتى ٠

انى أعيش مع شـــبح امرأة دائما ، ولكن أى امرأة ، ان تلك التى سمحت لها بدخول جنتى ، هى امرأة لاكالنساء ، فانها النور بغير مصباح، وهى قطرات النشوة بغير خمر ، هى عروس لها جسم المرأة ، وكل شىء جميل فى المرأة متدثر فى رداء من خيالى ومن كل ما هو جميل من نفسى ، فقد أسبغته عليها هى ملكة جنتى التى توحى الى بخير ما أخرج وأصنع ، فالمرأة التى لها شأن فى حياتى هى كما ترى من صنع يدى وخلق تصويرى وانى أعتقد أن أغلب من ذكرت من الكتاب والفنانين والرجال العظـــام ما دفعتهم الى العمل المنتج الا نساء من صنع أنفسهم » ٠

ولكن هل استطاع توفيق الحكيم أن يقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى من حياته ٠٠ انه قد تزوج رغم اصراره على البرج العاجى ، ولكنه ماذا يقول : «٠٠ المرأة عندى هى المرأة دائما وان كنت اليوم أكثر شفقة بها وأشد حرصا على عدم الاساءة اليها » (١) ٠

ويربط توفيق الحكيم الفن بالمرأة،انه يراها مصدر الفنون والآداب ويؤمن بالهامها ٠٠ « انى اذ أتكلم عن الفن لا يسعنى الا أن أعترف مرغما ان المرأة هى روح الفن ،ولو لم توجد المرأة على هذه الارض فربما وجـد العلم ، ولكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك ان الالهام الفنى نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسا هى التى تنثر أزهاره على الناس ، ما من فنان على هذه الارض أبدع شيئا الا فى ظل امرأة ٠٠

(١) مجلة الاثنين : يونيه عام ١٩٥٣ ٠

ان عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه ، ان عداوتى ليست الا دفاعا عن نفسى ، أقرن بين المرأة كشىء يوحى بالجمـــال وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا (١) » ٠

فاذا تحدث عن زوجة الفنان رآها عاملا هاما فى حياته ٠٠ « زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها بأن يعنى بها ، هى التى تزيل متاعب زوجها ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبهـــا ، هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره قط بهمومها ، هى المخلوق الذى يعيش صامتا صابرا باسما بجوار الفنان طول العمر دون أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا الجوار (٢) ٠٠ »

لكن ٠٠ هل هذا الذى يرى المرأة على هذه الصورة الموحية الملهمة ، أحب حبا قويا جبارا ٠

انه يرى أن الحب ٠٠ ربما كان هو الشىء الوحيــد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر ٠٠ « ٠٠ غير أنه فى فترات عاصفة يقول « ان الحب فى هــذا العالم عضـــو ربما تمكن العلم الحـــديث من بتره واستئصاله ، دون أن تخسر الانسانية شيئا كثيرا ٠٠ »

فاذا أردنا أن يتجاوز الشباب الباكر بأحاسيسه وعواطفه هل يمكن أن تعطينا قصة « عصفور من الشرق » صورة المحب ، أم أن هذه الصورة تبدو رائعة فى « الرباط المقدس » ؟

لست أدرى ، ولكنى أبحث عن الحب فى حياة الكاتب فلا أجــد الا هذه العبارات الغامضة الحزينة المحرومة « ٠٠ انى أحب الحب ، وانك لتعرف ان للحب مقاما كبيرا عندى فى الحياة ، وفى كل حياة ، وربما كان الحب هو الشىء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر ٠٠ آه ٠٠ لو كان القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة ، وجعلنى أجد أحــدا يحبنى حقيقة ، مرة واحدة ، أنا الذى أعتقد طويلا أن عظماء الرجال هم عظماء العواطف وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف وأن الذى لا يعرف ولايستطيع أن يحب انسانا لن يعرف ولن يستطيع ان يحب الانسانية » (٣)

أى صرخة هذه ، أى نفس هذه المحرومة المشــوقة ، ولكن هل حقا

---

(١) تحت شمس الفكر ٠

(٢) المصدر نفسه ٠

(٣) زهرة العمر ٠

أن توفيق الحكيم حزين ذلك الحزن الممض الذى تصوره بعض كلماته ٠٠

« لا تذكرنى بالغد ، انى الآن أعيش ، حسبى هذا ، أعيش يوما فى مونمارتر فردوس الفن ، الذى سأفقده يوما ، سوف أذكره مع الحسرات، أما الآن فانى أقطن فى ناحيةأخرى من الحى شأنى فى كل شهر ، ما أحلى التنقل والحرية يا جان ٠٠

لم تتح لى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم لابتسامها ، فان ما عندى من أزمات داخلية شغل قلبى دائما عن الطبيعة، ان عينى مصوبتان دائما الى أعماق قلبى ٠٠

لقد جاوزت الاربعين وما أبصر بعد فى الأفق طيف واحة مورقة فى صحراء حياتى المحرقة ، ما قيمة الشهرة بغير سعادة ، وفيم الأدب والفن بغير هناء » ٠

يقول العقاد ان توفيق الحكيم متردد ٠ « بين عتبة الصومعة وعتبة الحياة ٠٠٠ » ويصف سيد قطب طبيعة توفيق الحكيم بأنها « تشفق من الحل الحاسم وتنفر من الوضوح الصريح ، ان الشك فى طبيعته والقلق الدفين فى نفسه ، وهو معنى بالذهن الانسانى المجرد ، يوغل فى تأملاته ويسبح فى فروضه ويثير مشكلاته ويتابع ومضاته ٠٠ »

هل تستطيع من هذه اللمسات أن ترسم صورة توفيق الحكيم ؟ ٠

أعتقد ان هناك خيطا آخر هو الصوفية ، فما صلتها بتوفيق ، هل كان من المتوقع أن يتجه اتجاها روحيا صوفيا خالصا ٠٠ ثم غلب عليه طابع المفكر ؟ ٠٠ يقول محمد مندور : انه مفكر بعقله لابحواسه ، يعالج المسائل علاج من لم تمسه عن قرب ، فالى أى حد يبدو هذا فى انتاجه ؟

ان « توفيق الحكيم » يضع أمامنا ضوءا جديدا لشخصيته «طفولتى مملوءة بالغرائب منذ ولدت ، وحتى ساعة ولدت قيل انى لم أبك مثل سائر الاطفال فحسبونى نزلت ميتا ، وكان الوقت ليلا فنبذونى للاعتناء بالأم المريضة ، فلما عادوا الى وجدونى فى أتم صحة ، ساكنا صامتا أنظر فى عجب وسرور الى نور الصباح ، أترانى أحببت النور من النظرة الاولى (١) ! » ٠

« أعجب ما فى حياة الانسان انها ليست حياة واحدة ، انها سلسلة

---

(١) تحت المصباح الاخضر ٠

حيوان تتتابع فى حلقات العمر الطويل ، فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى ، وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى ، وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى ، وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى ، وهذه الحلقات منفصلة فى أكثر الاحيان احداها عن الاخرى انفصالا ملحوظا ، فان ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى ، فالجمال الذى كان يفتك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة والكتاب الذى يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة (١) » .

هذا رأى توفيق الحكيم فى أطوار حياته « .. انه (٢) لم يلق كثيرا بشخصه فى غمرة الناس ، ولكنه كان يلقى اليهم دائما بفكره يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم ، كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط يلقى الفتات الى السمك وينظر اليه يجتمع عليه ويفترق ..»

توفيق الحكيم فنان يؤمن «بأن الفنان خلق ليخلق ومهما تكن الاسباب فان السبب الاكبر هو أن قبسا حل فيه من صفة الخالق..»

ولكنه يرى أن الادب قد فشل تماما فى توجيه الناس والامم والاجيال وان أثره لم يعد أكثر من أثر السيجارة . فان كانت أفادت أحدا فقد أفادته هو . ان الادب لم يحول الانسانية عن الشر ولم يدفعها الى الخير ..

---

(١) عصا الحكيم .
(٢) الرباط المقدس



عباس محمود العقاد

بدأ حياته بالصراع فهاجم شوقى وحافظ واشترك مع المازنى فى انشاء « الديوان » ، ثم مضى يصارع فى السياسة فى عنف وقوة عشرين عاما · كان قلمه أمضى الاقلام واشدها جرأة وحماسة ، وكانت خصومته أقوى شماسا وعنادا وقسوة ·

ورأى العقاد بعـــــد مضى أكثر من ثلاثين عاما أن حملته الأولى على الأدب القديم كان لها أثرها القوى « ·· (١) وقد أنكرنا أصـــنام الأدب لأننا أنكرنا عملهم ، وطلبنا عملا أصلح منه وأوفى ، فأصلحناهم هم أنفسهم وحولناهم الى وجهة غير وجهتهم ، وجعلناهم يطرقون أبواب الفنون الحيـة بعد أن كان كلامهم كله أو أكثره مقصورا على المديح والرثاء ، وشكوى الزمان والاخوان ، وفتحنا أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرىء القيس أو أبى الطيب كفرا أو جناية تعاب كما تعاب الجناية على الشرائع والقوانين ·· »

اســـتهل حياته الأدبية قارئا ، وقد اختـــار أساتذته بنفسه ولم يفرضهم عليه أحد « لأنهم كانوا جميعا مؤلفين مشهود لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف أقر منهم من أشاء وأعرض عمن أشـــاء وأطلبهم حين أريد وحيث أريد » ··

وتحت سماء أسوان الصافية بدأت نفس العقاد تتفتح ، وان كان المرض الذى ألم به فى مطلع الشباب قد أنشأ فيه طبيعة الاعتكاف وأفسح له المجال للدراسة والقراءة والتأمل ·· وربمـــا كان من أثره « أن (٢) استقر فى قلب العقاد حب الحياة والتشبث بها والكفاح فى ســـبيلها ، فاذا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة وغلبة فى التمتـع باطايبها ·· وكان من عقبى ذلك الظفر أن أورثه زهوا وعزة وثقة بالنفس ورفاهة شـــعور بالكرامة ، وزاد بين جنبيه نزعة المغـــالبة والمطـــاولة والاصرار » ·

---

(١) العقاد ـ فى جريدة الاساس فى ١٩ ـ ١٠ ـ ١٩٥١·
(٢) محمود تيمور « ملامح وغضون » ·

كان يقرأ ثلاثة أنواع من الكتب «مايبحث (١) فى الأدب والوصف. وما يتناول علم ماوراء الطبيعة والحياة الأخرى ــ ان كان هناك حياة اخرى ــ ، وعلم الحيوان وما يتصل به فيما يختص بحيــاة الحشرات والحيوان وطباعها وغرائزها ، وأنا أقرأ حوالى الساعتين يوميا ، ومنذ سنوات كنت أقرأ سبعا أو ثمانى ساعات فى كل يوم ، ويتراوح عدد الكتب التى أقرأها كل شهر بين خمسة وسبعة ، وقد لا أقرأ من الكتاب غير فصل واحد ثم أضعه فى مكتبتى وربما عدت اليه فيما بعد ... »

وكان يقرأ كتبا كثيرة لا بقصد الكتابة فى موضوعها على الاطــلاق اذ ان القراءة « هى التى تعطيه دون غيرها كثير (٢) من حياة واحدة فى مدى عمر الانسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب ، لا أحب الكتب لأنى زاهد فى الحياة . ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى .. »

وفى الصبا البــاكر رسم العقــاد صورة حيــاته على احد ثلاث شخصيات ، قائد عسكرى ، أو ناسك صوفى ، أو عالم زراعى ، ثم تبلورت هذه الصور الثلاث حين وجد القلم وبدأ يكتب .

« .. كنت أقرأ كل ما يقع فى يدى من الكتب الادبية والدينية ومعظمها من الطبعات القديمة ، وقرأت فى مناقب الصالحين عن الاولياء الذين يمشون فوق الماء والاولياء الذين يسخرون الريح ولا يحترقون بالنار ، فأردت أن أكون مثلهم ، وترددت على المسجد فى أوقات الصلاة وكان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلا جميل الصوت أسمعه فى الفجر أحيــانا ، وأسمع القصــائد التى ينشدها ، وكان شعر البرعى لايعجبنى ، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة من نظمى ؟ » .

ثم يقول « .. لا تزال صناعة القلم عندى شيئا من صناعة السيف، ولا يزال بحث الدين وما وراء الطبيعة عندى شاغلا لا يعوقنى عنه شاغل من شئون السياسة أو شئون المعيشة » .

وتمنى العقاد «الادب، لانه تمنى التعبير عن النفس «... لان التعبير عن النفس يجتمع فيه عندى تحقيق وجودها واستكناه حقيقتها وحقيقــة ما حولها ، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع اليه موجود شاعر بوجوده» (٣) .

---

(١) المصور : فى فبراير سنة ١٩٤٤ .

(٢) الهلال ــ فى مارس سنة ١٩٤٨ .

(٣) الرسالة ــ أمنيتى ــ أول ديسمبر سنة ١٩٤١ .

واشتغل العقاد بالتدريس ، ثم بالصحافة ، ثم انصرف الى الأدب الصرف وكتب المقالة والقصة والقصيدة ، ولكنه يبلغ غاية قوته فى الثمرة وأدب المقالة التحليلية على وجه أخص .

يقول زكى مبارك « هو كاتب أقوى منه شاعرا لأن ذهنه ارتاض على التعبير بالترسل مما ارتاض على التعبير بالقريض .

العقاد السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ومن أبناء الارض عند آخرين أما العقاد الكاتب الادبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع ..

والعقاد الناقد لاينحرف عن القصد الا فى حال واحدة حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين ، أما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم فى التاريخ فهو غاية فى العدل والسداد ... »

وقد وصف العقاد بأنه يحب العزلة ويحرص عليها ، وهو يرى أن فلسفة حياته تفرض عليه العزلة فى بعض الأوقات (١) « وليس معنى العزلة أننى أحارب الناس أو أننى لا أبادلهم العاطفة والشعور فانى أحب مسالمة الناس جهدى ولا أستبيح لنفسى أن أبدأهم بما يسوء .. ولكنى لا أبيح لأحد أن يستخف بالاساءة الى ولا سيما الاساءة التى على اعتزاز بقوة لا تدفع ، واعتزاز بطغيان تعنو له الجباة فمثل هذا المسىء لا أدعه فى طغيانه دون أن يندم عليه .. »

وكان أحيانا لا يغادر داره أسبوعا كاملا « لست أنسى فزع أديب زارنى يوما وعلم أنى لم أبرح الدار منذ أسبوع فهاله الأمر كأنه يسمع بخارقة من خوارق الطبيعة ، فقلت له لا تعجب انها وراثة من أبوين ، يؤكدها الزمن الذى لا تحمد فيه معاشرة أحد الا من رحم الله .. »

وهو يحدد موقفه من الناس تحديد الخبير بالناس المتمرس بالتجارب « بأنه لا ينتظر منهم كثيرا ولا يطمع منهم فى كثير ، والطمع فى انصاف الناس اذا كان فى الانصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم ، هو الكثير الذى ما بعـــده كثير ، فهم منصفون اذا لم يكلفهم الانصـــاف شيئا ولم يصدمهم فى هوى من أهوائهم » .

« والحياة فى نظرى لا قيمة لها ولا تستحق أن نحرص عليها الا اذا

---

(١) الرسالة في ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ .

كانت لنا شروط نمليها عليها فترضاها ، ولم تكن كلها شروطا تمليهـــا هى علينا فنرضاها ولا نملك الصرف والعدل فيها » .

وهو قليل الاكتراث للمقتنيات المادية : «لم أشعر قط بتعظيم انسان لأنه صاحب مال » .

وورث عن امه الكثير الا القصد فى النفقة وتدبير المال يقول « ان الوالدة لاتنكر من شئونى شيئا الا الورق ، الورق الذى لاينتهى ، هو الذى يمرضنى .. وهو الذى يصرفنى عن الزواج .. قلت لها ذات يوم : لو وجدت لى زوجة مثلك تزوجت الساعة » .

لم يرحل العقاد ، ماعدا أسفارا قصيرة الى فلسطين والحجاز ، وهو يحب أن يسافر الى أنحاء العالم من مكانه عن طريق الكتب .

يقول « لقد تعلقت بالسياحة فى أوائل صباى ، وشاقنى أن أسيح هنا وأسيح هناك بين مشارق الارض ومغاربها ، ولكنها كانت كلها كما تبين لى بعد ذلك عارضا من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى ليسعنى أن أقول اليوم اننى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى أن أبرح المنزل أياما بل أسابيع ، ولذلك سبب منى وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه ، أما السبب الذى منى فبعضه يرجع الى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبوى ، وبعضها يرجع الى شـــعورى بالقراءة التى تعيننى ، فانى أشعر بأننى لا اقرأ سطورا على ورق ولكننى أحيا فى تلك الاوراق بين أحياء » .

وبالرغم من أن العقاد كره كتابة « اليوميـــات » وقال ان أمرين يباعدان بينه وبينهـــا كلاهما حقيقى بالاثبات لأنهما أيضا من ظواهر النفسيات ، وظواهر الفترة التى عشت فيها ، أول الأمرين أننى غير مطبوع على التوجه الى محراب الاعتراف لأنه ضرب من ضروب الاستغفار لأستريح اليه ، أو لأننى أدخر لنفسى خفاياها أو أنزهها عن البوح بها لأحد غير مستثن من ذلك الا القليل » .

أقول بالرغم من هذا فقد كتب العقـــاد اعترافاته على عدة صور وفصول أمكن أن تعطينا ملامحه وسرائره واضحة الى حد كبير .

« .. (١) أول ما اعترف به أننى مطبوع على الانطواء .. واننى

---

(١) الرسالة – فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادى فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه ٠

لقد ورثت طبيعة الانطواء من أبى وأمى ، فلا أمل الوحدة وان طالت بغير قراءة ولا تسلية ، ولا أزال أقضى الايام على حدة حيث يتعــذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات ٠

ويغلب على المتطوعين أنهم لا يألفون الناس بسهولة ، واعترف بأنى واحد من المنطوين فى هذه الخصلة ٠ ولكننى أعترف كذلك بأن الألفة التى تصح بينى وبين أحد الاخوان لا تقطع ولا تتعرض للقطيعة باختيارى وقد يتعدى الأمر ألفة الاخوان الى ألفة غيرهم من الأحياء والأشياء ٠

واعترف الى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكراهية ولا أريد أن أعرفه ، وقد يبلغ من ضعف ارادتى أحيكانا أن أحتال عـلى نفسى ، كأنها شخص آخر أطلعه على بعض مرادى وأخفى عنه بعضه ٠

واعترف بأنى من الزاهدين فى البذخ والطعام ، ولكنى أعترف بأنه زهد لا فضل لى فيه لانه يكفينى مشقة المغالبة والمقاومة ٠

وأعترف بأن عنان النفس يفلت من يدى فى حالات كثيرة ، ولـكنها حالات أراجعها أحيانا فلا آسف لافلاته ، بل أرى أن ضرر الاطلاق أخف من ضرر الشد والكظم وثنى العنان ٠

٠٠٠ لا أطالب أحدا بجميل لأن جميلى لنفسى سابق لكل جميل ، ولكننى أعترف كذلك بأنى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء من المتكلم وغفلة فى السامع ٠

وأعترف بأنى أحب الشهرة والخلود ، ولكنى أعترف كذلك بأنى لاأطلبهما بثمن يهبط من كرامتى ٠

اننى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقوم بينى وبين انسان ، ولا سيما حاجز الكلفة والاغراض فاذا تلقانى انسان يمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بينى وبينه أبد الدهر ، وليس أشق على نفسى من الزلفى التى يزدلف بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقة ٠٠٠

اننى أسىء الظن بالناس لانى أحسن الظن بهم ٠٠

العادة قوية السلطان على ســليقتى وخلقى لا تعصمنى منهــا الا الثورة النفسية » ٠

هذه ملامح الصورة النفسية وخطوطها الرئيسية كما رسمها فى أكثر من موضع من كتاباته ، وهى فى مجموعها تعطى صورة رجل كونته تصاريف الايام ومنحته الخبرة الطويلة ، وأتاح له الاتصـــال بمختلف البيئات الادبية والسياسية طبيعة متعددة الجوانب .

وهو معجب فى الافراد الذين عاصرهم برجلين غاية الاعجاب ، اما احدهما فهو محمد عبده .. « الحق ان اعجابى بهذا الرجل العظيم كان من أكبر المؤثرات فى توجيه حياتى وتزويدى بالقدوة الصالحة فى الاستقلال بالرأى والمجاهرة بالعقيدة واو ذهب بى الامر مذهب التحدى والمخاطرة وقلة المبالاة بما يكون .. » وأما الثانى فهو سعد زغلول .

ومذهبه فى الادب ورأيه فى المرأة كلاهما غاية فى الاستواء فهـو يكره الأدب المكشوف ويحاربه ، ولا يجامل المرأة فى تملق رضائها بالموافقة على رأيها أو هواها .

رجع عن ترجمة حديقة أبيقور لأناتول فرانس «لانه بدا له أن أدب الاستخفاف الذى يدور عليه ذلك الكتاب ليس بالأدب النافع ،كما رفض ترجمة قصة « لادى شاترلى » لانهـــا من الادب المكشوف الذى نحاربه أشد المحاربة .

ويقول عن الكاتبة «مى» وكان بينه وبينها عاطفة ، كان لها أبعـــد الأثر فى حياته الأدبية ولعلها كانت مصدر الصراع بينه وبين مصـــطفى صادق الرافعى وغيره ..

« كنا نتبادل الآراء كثيرا ،ونختلف كثيرا ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء ، لأن الخلاف بين كل انثى وفية لطبعها وكل رجل وفى لطبعه أمر من البداهة بمكان ، فهى تنظر بعين حواء الى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم أو كلاهما مخلص فى خلافه ومستفيد »

ويصور موقف المرأة فى « مطالعات » .. اننا فى عصر يميل الى محاباة المرأة فيما تكتب من آراء فلسفية كانت أو اجتماعية ، .. فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المرأة ولا يوافق هواها كما يحبس لسانه عن ذلك فى أندية الأنس ومجالس السمر ، ويكتب حين يبحث فى مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الامين » .

هذا غاية الاستقامة فى الرأى والنزاهة الفكرية عن المجاملة ومبعث هذا أن العقاد يؤمن برأيه ويقدر مكانة أدبه .

«... ولقد تعبت كثيرا فى تحصيل الادب والثقافة ، ولكنى اعترف بعد هذا التعب كله بقصورى عن الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل صباى فلم أبلغ بعد غاية ولا قريبا من غاية .. »

وتلك صورة الطموح فى نفس الكاتب الذى وصل الى ذروة الشهرة والتبريز .

لعل أبرز حادثين فى حياة العقاد : هما سجنه سنة ١٩٣٤ ويبدو ان السجن عدل من اتجاهه السياسى وكان حافزه على الخطوة التى تلت ذلك حينما تحرر من الحزبية بعد سنوات ، وان كان اكسبه مزيدا من الاعتداد والوقار . يصور ذلك قوله :

لبثت جنين السجن تسعة أشهر
وها أنذا : فى ساحة المجد أولد

وفى كل يوم يولد المرء ذو الحجا
وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد

الامر الثانى البعيد الاثر فى حياته وصول الالمان الى العلمين وهجرته الى السودان ، وكان يحمل فى أيام الحرب على الالمان حملات عنيفة والف عن هتلر كتابا تناوله فيه تناولا يتفق مع نزعته الديمقراطية.

لم تطل هجرة العقاد فى السودان ولكنه خسر منها كثيرا . خسر الكثير من ذخائره الادبية الخالصة التى لم يكن بد من اتلافها.

« فى هذا اليوم بعينه – أى عيد ميلاده – وصلت جيوش روميل الى العلمين وأوشكت أن تعبرها الى طريق العامرية فالقاهرة فالاسكندرية وهو الهوان على ايدى اناس هم أخبر الناس بالهوان ولا فرار من الموت ان وجب ، ولكن البقاء الهوان اخلال بكل واجب يحرص عليه الانسان .

وليس هذا أفجع ما فى الصفقة الفاجعة بل أفجع منها الليلة التى قبلها أو هى ليلة المذبحة كما سميناها ، لانها جرأة على الماضى تهون معها الجرأة على المستقبل او على المجهول .

كل ما أتركه بعدى لا أباليه ، الكتب يصنع الله بها ما يشاء ، ولا أكتم القارىء اننى على خطوة من احراقها فى كثير من الاوقات غضبا على تكاليف المعرفة حيث يسعد الجاهل بغير تكليف ، وماذا أترك غير

الكتب مما أباليه ان كنت أترك الكتب ولا أباليها هباء أو كالهباء .
الا أوراقا متفرقات فيها ودائع العمر التى يموت عنها الانسان ولا تسخو نفسه بأن تموت قبله .

وهى لا تنقل الى حيث تفتح وتقرأ فى مدخل كل ارض مطروقة ، وهى لا تودع عند أحد كائنا من كان ، فلا موئل أكرم من التمزيق ثم نار الحريق ، وانقضت ساعتان قبل تمزيق الورقة الاولى ولم تنقض الا دقائق قبل تمزيق الورقة الاخيرة .

وانجلت الثورة عن كومة من الورق كل قطعة منها موصولة بعرق ممزق وشعل من النار لم تكن من قديم عهدها الا شعلا من الناس ولكنها عادت الى رماد » .

ويصور العقاد نفسه على قمة الخمسين فيقول : « ان الخمسين نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذه الانسان من الدنيا ويضيفه الى تكوين عقله أو جسمه ، ولكنه لا يزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير .. »

فاذا بلغ قمة الستين صور مدى التحول الذى اكسبته اياه هذه السن (١) .

« .. زادت قدرتى على البحث والدراسة ، ونقصت قدرتى على مواصلة الكتابة والقراءة ولكننى عوضت هذا النقص بازدياد المرانة على الكتابة وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من أيسر القراءات .

زادت حماستى لما اعتقد من الآراء ، ونقصت حدتى فى المخاصمة عليها لقلة المبالاة باقناع من لايذعن للرأى والدليل .

لم تنقص رغبتى فى طيبات الحياة ولكننى اكتسبت صبرا على ترك ما لا بد من تركه .

وارتفع عندى مقياس الجمال ، ما كان يعجبنى قبل عشر سنين لا يعجبنى الآن فلست اشتهى منه اكثر مما أطيق .

وكنت قبل عشرين سنة كما انا الآن قليل الرجاء فى خير بنى الانسان ، ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت الى فلسفة العمل .

---

(١) المصور : اغسطس ١٩٤٩ .

كنت أحب الحيـــاة كعشيقة تخدعنى بزينتها الصادقة وزينتهـــا الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة » ٠

فاذا أردنا أن نتعرف سائر حياة العقاد الوجدانية تيسر لنـا ذلك على أوسع نطاق وأوفاه ٠

« ٠٠ ان الانسان لا يجد نفسه فى شىء كما يجدها فى الحب (١) وانه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ومن عطف وجمـــود ومن رحمة وقسوة ومن خفـــايا وظواهر ومن فجيعة وضحك ومن حكمة وحمـــاقة ومن انسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه فى الحب فالحب ومعرفة الناس صنوان ٠٠ »

وهو يصور الحب تصوير العارف الخبير « ٠٠ ان الرجل يعشق الانثى فى مبدأ الامر لانها امرأة بعينها وامرأة بصفاتهـــا الشخصية ، وخلالها التى تتميز بهـــا سائر النساء ، ولكنه اذا أوغل فى عشقهـــا وانغمس فيه ، أحبها لانها المرأة التى تتمثل فيهـــا الانوثة بحذافيرها ٠ وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتهـــا ، فهى تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة ٠

ان الانوثة تثير فيـــه شعور القوة وشعور الجمـــال وشعور الانسان كله وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بمـــا وراء الطبيعة من آراء موهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام (٢) ٠٠٠ »

ويصور فلسفة الحب فى قوله « يجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال انهما يجتمعان ، ويتكرر الحب فى حياة الانسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالامس فى معظم المزايا ومعظم الصفات ، ويتقارب البعيدان ويتبـــاعد القريبان ويتجدد القلبـــان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان ٠

وخلاصة التجارب كلها فى الحب : انك لا تحب حين تختـــار ، ولا تختار حين تحب ، واننا مع القضـــاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت ٠٠ »

---

(١) ويصف الحب في صورة أخرى (الحب شاغل يلهج النفس باحد من الناس فيبدا الحب متى امتلأت النفس بهذا الشاغل وان لم تقع المشاهدة بالعيان ٠

(٢) هذه الشجرة ٠

وقصة «سارة» تعطينا صورة العقاد العاشق المحب فى مختلف صور رضاه وغضبه وقوته وضعفه .. هذه الصورة تبدو فى أنه قليل المرح فيروقه من المرأة ان تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا موقعا تشبيها له بالغناء الذى ينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن الوقوف، ويسكن حينما يطيب منه السكون .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها اغراء لايخفى.

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره ان تتخذ من فكاهتها صناعة .

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خدامة فيه لانها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها .. » .

وينتهى من ذلك الى أنه « اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب ، واذا أصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ماتغنيه امرأة واحدة فهو الحب ، واذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء، ولا لأنها أذكى النساء ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ، لكن لانها ... هى ، بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب .. » .

وفى حياة العقاد أكثر من حب وأكثر من «سارة » .. حتى بعد أن ارتفعت به السن . ففى سنة ١٩٤٢ عندما عاد من السودان ، نشر قصيدة فى الرسالة (١) يقول فيها :

لاتراعى بعد هذا من فراق وفوات .

قدر الله كفيل لك فى ماضى وات

كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا

ومع ذلك فان العقاد قد عاش حياته دون أن يتزوج ، وله فى ذلك رأى أعلنه منذ أكثر من عشرين عاما(٢) وقام عليه حتى ترك هذه الدنيا «.. لو كنت فى الريف أو كانت صناعتى غير الادب لتزوجت ، ولكننى الآن لاأستطيع الزواج لانى أوطن نفسى دائما على أن أواجه كل نوع من أنواع المعيشة وأجازف بكل شىء ولا أبالى بالمستقبل» .

(١) أغسطس عام ١٩٤٢ .

(٢) مجلة كل شىء — أغسطس عام ١٩٣٥ .

وبعد ... فالعقاد تاريخ طويل ممتد فى الادب العربى المعاصر منذ عام ١٩١١ ، وهو يمثل للخلود بعد ماسكن الصراع الحزبى وبدأ يدخل باب الادب الخالص ، على ان هذا لا يعنى انكار آثاره من قبل ولكن الاتجاه الاخير الذى اخذ صورة الاستقرار يمثل العقاد بعد ما تبلورت أفكاره واستقر هدفه وتوضح منهجه ، لقد تحول العقاد وتنقل فى هذه الفترة بين الكتابة والسياسة والكتابة الادبية والنقد والتراجم وتلخيص الكتب ودراسة شخصيات سياسية «كسعد» وشاعرة «كابن الرومى» و «المتنبى». ثم بدأ يتصل بالتراث الاسلامى فكتب عبقريات محمد وعمر وأبى بكر وعلى والحسين وبلال . وكتب « الله » و «فلسفة القرآن» وهنا استقر العقاد على طابعه الاصيل « كتابة التراجم النفسية » .

ثقف العقاد نفسه وقدمته السياسة الى الجماهير فى صورة ضخمة وظل فترة طويلة دعامة من دعائم الكتابة الصحفية الحزبية ، ولم يحل هذا التبريز فى ميدان السياسة دون أن يزاول العقاد الادب فيكتب فيه يوما كل أسبوع ويصدر بين حين وحين كتابا من مؤلفاته ، أومجموعة من مقالاته (١) .

حتى اذا توقف الصراع السياسى الداخلى ابان الحرب العالمية الثانية أنتج اجود آيات أدبه .. « كان النشاط السياسى يحول بينى وبين الفراغ للتأليف والتدوين ، فلما حيل بينى وبين هذا النشاط فى وقت من الاوقات كانت النقمة أبرك من النعمة ، فوجدت فراغا من الوقت لتأليف الكتب لم يكن ميسورا فى ابان العراك ، وظهر لى نحو عشرين كتابا فى شتى الموضوعات » .

وحين يتصل تاريخ العقاد الادبى بالسياسة يبدو فى صورة « السياسة » نفسها ، وهى صراع وخصومة ونقد وهجاء قد يصل غاية الشوط فى العنف والشماس وقد يبدو فى صورة المتناقضات .

أما حين يخلص للأدب الصرف فانه يبدو غاية فى القوة والاستقامة والوضوح .

والعقاد ولد فى ٢٨ من يونيه عام ١٨٨٩ فى اسوان وكتب أول مقالة ١٩٠٤ فى جريدة الظاهر واشتغل بالتدريس مع المازنى وفريد أبى حديد عام ١٩١٥ .

---

(١) ساعات بين الكتاب (مطالعات ـ مراجعات) .

وقد وصف أمانيه (عام ١٩٥٤) وهو سن الخـــامسة والستين بقوله :

« أما كل ما أطلبه فلم أبلغه ولا أعتقد أن أحدا بلغ كل ما طلب ، كان هدفى فى الحياة أن أتولى القيـادة العسكرية ، ثم تحولت الى طلب العـــلوم الزراعية ، ثم تبين لى من مراجعة نفسى مراجعة دقيقة أن وراء الطموح الى القيادة العسكرية والى العلوم باعثا واحدا هو حب الادب .»



محمد حسين هيكل

هذا كاتب وأديب اختطفته السياسة ولم يسترده الأدب مرة أخرى سوى انه أذاع مذكراته السياسية فى خلال هذه الفترة (١) ·

وكاد ان ينطوى فى تاريخ الادب المعاصر ، الأديب الذى عرف بالاسهاب والمقالات المطولة فى صدر « السياسة الاسبوعية » زمنا ·

فقد بدأ حياته بالمحاماة ثم احب الادب واتجه الى الصحافة حينا فاستقر بها طويلا ، وانتج خلال هذه الفترة آثاره الأدبية المعروفة الآن، ثم انصرف الى التاريخ ، واغرم بالتاريخ الاسلامى بوجه خاص ، وأتيح له خلال هذه الفترة أن يجلى تاريخ الرسول وان يوغل فى دراسة الدولة الاسلامية وأبطالها ·

وفجأة توقف ، فقد انتقل من الصحافة الى السياسة ، واتيح له أن يرأس مجلس الشيوخ بعد أن كان يرأس تحرير صحيفة يومية ·

واستنزفت السياسة بصراعها ومناوراتها ومتاعبها قواه كلها ، فتوقفت آثاره التى كان قد بدأها عن الاتمام ، فلم يكتب ولم يكمل « الشرق الجديد » ولا تاريخ السيرة ·

ولكن « هيكل » يريد أن يقول لنا فى أكثر من مناسبة : انه لم يكن اديبا ولذلك فلا ضير عليه أن ينصرف عن الادب يوما ·

« ثم ماذا (٢) ترانى ياصديقى انتجت ، دعك من فصول يومية تكتب فى الصحف فأنت أعرف الناس بتفاهة ماينفق من مجهود فى هذه الفصول ، دعك من العمل فى حزب سياسى فأنت أدرى بالسياسة المصرية ،ما هى وما مبلغ الجهد فيها ، دعك من هذين وانظر واياى فيما انتجت انه لاشىء أو لايكاد يكون شيئا ، وانا رجل بينى وبين الخامسة والأربعين شهور ·

---

(١) وقد أصدر قصته الجديدة « هكذا خلقت » ·

(٢) ملحق السياسة (الصادر فى يونيه سنة ١٩٣٣) ·

... وما أضيق بأسلوب ولم أتخذ الادب يوما صـناعة ولا انا توفرت على دراسة الادب ، انما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال الى قراءة الفلسفة والادب لا الى دراستهما دراسـة انقطاع وتمحيص » .

وقد كان هذا ارهاصابأن هيكل يعود مرة أخرى الى فنه الاول : الاقتصاد والقانون ... وقد كان !

ولكن هيكل قد ترك آثارا قوية فى الادب العربى المعاصر ، لايمكن أن تنسى وكان أبرز تحول فى تاريخه الادبى هو دراسة السيرة والتاريخ الاسلامى .

كان هيكل «حفيا» بالتاريخمنذ بدأ حياته ، فقد تناول الكثير من رجال مصر ، كما تناول جان جاك روسـو ، وبعض كتاب أوربا بالبحث والدرس ، ثم تبلور هذا الاتجاه فى دراسة للتاريخ الاسلامى كان مفتاحها كتاب « أميل درمنجم » عن محمد فقد لفت نظره هذا الكتاب ، فاذا به فجأة يواجه قراء السـياسة الاسبوعية فى شـتاء سنة ١٩٣٢ ، بفصول جعل عنوانهـا « حياة محمد لأميـل درمنجم : عرض وتعليق : محمد حسين هيكل ، وقد وصف هذا الاتجاه فى مقدمة كتاب « حياة محمد » بقوله « بدأت أراجع تاريخ محمد وأعيد النظر فى سير ابن هشام ومغازى الواقدى ، وعدت الى كتاب سيد أمير على « روح الاسلام » ثم حرصت على أن أقرأ ماكتبه بعض المستشرقين ، فقرأت كتاب درمنجم وكتاب واشنطون ارفنج ثم انتهزت فرصة وجودى فى الاقصر شتاء عام ١٩٣٢ وبدأت أكتب ، ولقد ترددت يومئذ ان جعل البحث الذى اطالع به قارئى من وضعى أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد على ما اريد » .

ولا شك أن كتاب هيكل عن حياة محمد ، كان تحولا واضـحا فى تاريخه الادبى بل فى تاريخ الادب العربى المعاصر كله فالرجل الذى عكف منذ شبابه على دراسة آثار الادب الاوربى ، والذى كان يدعو بقوة الى الحضـارة الأوربية وآثارها ، يتحول الى الشرق والى التراث العربى فيقرأه ويمعن فيه ويتناول على هذه الطريقة التاريخية الحديثة .

أى العوامل ذلك الذى دعا «هيكل» الى أن يمضى فى هذا الاتجاه ؟ هل يمكن أن يقال ان كتابنا الذين كانوا يتزعمون المدرسـة الحـديثة

ويدعون الى الحضارة والثقافة الاوربيتين ، قد داخلهم الشك فى تقدير هذا الادب حينما انهزمت المبادىء الفكرية الاوربية أمام المطامع الاستعمارية ، أم أحس كاتبنا أن الانسانية أصبحت فى حاجة الى غذاء روحى يرد عنها ذلك الظلم الذى فرضته الحضارة المادية المسلحة بأسلحة العلم والفكر لتحطم وتدمر وتستعمر ؟ .

أم اكتشف أن الكتاب والمستشرقين الاوربيين انما يعلمون لحساب الاستعمار وتغريب الشرق ، عند ذلك عاد الى التراث العربى محاولا أن يستخرج منه صورة نقية من صور البعث الروحى ؟ .

أن «هيكل» لا يحدثنا عن ذلك بأكثر من أنه تأثر بحملات المبشرين التى كانت قد استشرت فى هذه الفترة ، فدفعه ذلك الى دراسة السيرة للدفاع عن صاحبها ، ورد عدوانهم .

ولعل هذا يدفع عنه ماوصف به ، من أن اشتغاله بالسياسة قد أثر فى فهمه للأشياء فلا شك أن عمله السياسى هو الذى دفعه فى هذا الاتجاه الجديد الخصب « ... اذا كان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر فى تصورى للاشياء وفى حكمى عليها ، فانما كان أثره أن زادنى تقليبا للاشياء ، وامتحانا لها ،وتعمقا فى بحثماتنطوى عليه وما ترمى اليه » .
ولكننا نظلم «هيكل» اذا جعلناه من رواد الادب الاسلامى الحديث دون أن نذكر له أثر آخر كان به رائدا من رواد القصة ذلك هو قصة « زينب » .

فقد وضع هيكل باكورة القصة المصرية ١٩١٧ ولكنه لم يواصل السير فى هذا الطريق ، وان كان قد أنشأ بعض القصص بعد ذلك (١) .

وهيكل كاتب جزل العبارة ، واضح الأداء ، مستفيض ، يقلب الفكرة على جوانبها ، ويبحثها من جميع اطرافها ، ويعرض لها عرضا فيه شمول وفيه أناة وفيه دقة ، وهو يصف أسلوبه بأنه أسلوب قانونى « وطبيعى أن يكون أسلوبى أسلوب الذين درسوا القانون والذين يرون أن تؤدى المعانى بالالفاظ لاتزيد عليها ولا تضيق بها ، والذين لايعنيهم فى ذلك بهرجة اللفظ للفظ ، وقد زادنى حرصا على هذا الاسلوب أنى رأيت مثله موضع الاطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة » .

ولكن هيكل لايلبث أن يتهم كتاب العصر بأنهم لايعرفون اللغة

---

(١) ثورة الأدب .

العربية « نحن مع احترامنا للغة العربية ، لانعرف اللغة العربية ، نعم .. نحن لانعرف «عربى» ولست اذ أقول هذا أقوله عن تواضع كما اعتاد البعض ، ولكنى أقوله لانه يعبر عن الحقيقة فى أمر الأكثرين منا ، فنحن قل أن نقرأ كتابا باللغة العربية غير ما قرأنا بدء صبانا ، ولا يزال حتى اليوم هو الأساس الذى نصدر عنه فى كتابتنا وتعبيرنا عن عواطفنا ومشاعرنا» . (١)

سافر هيكل الى أوربا فى مطلع الشباب فالى أى مدى كان أثر ذلك فى أدبه وانتاجه ؟

يقول « سافرت الى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ اليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء اليها هوى مغرم بها ، ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناى من جمال البيئة المحيطة بى ، الى الاعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية » .

غير ان هيكل لم يلبث حين عاد الى مصر أن بدا أقرب الى الاعتدال فهو لم يسرف فى الاندفاع وراء الادب الأوربى ، وآية ذلك دعوته الى الفرعونية وربط الحاضر بالماضى ، ومهما يكن من أمر هذه الدعوة وصداها ومصيرها فانها قد تبلورت بعد ذلك فى نفس هيكل على صورة أخرى حين بدأ يكتب عن «الاسلام» فقد اتسع المعنى القومى الذى كان يدعو اليه الى صورة أشد قوة وعمقا حين ربط تاريخ الشرق الحديث بالاسلام ودعوته ومدنيته وامبراطوريته .

والحق ان هيكل كان فى حياته الفكرية أقرب الى الاعتدال من زملائه زعماء المدرسة الحديثة ، كان أشد رفقا ، وأكثر اعتدالا ، حتى أسلوبه فى الكتابه السياسية كان مثلا للرفق والأناة وان لم يخل من قوة ورغبة فى الصراع .

فهو لم يعرف بالخصومات الجريئة التى عرف بها طه والعقاد ، ولم يعلن ثورته على القدماء ثورة واضحة ، وهو فى الادب يؤمن بالملاءمة بين العلم والأدب ، وبين تراث الشرق وحضارة الغرب ، وبين الأحياء والبعث من ناحية ، والنقل والترجمة من ناحية أخرى .

اتصل منذ شبابه الباكر بالجريدة وتتلمذ على خاله لطفى السيد ،

---

(١) السياسة الاسبوعية ٣ من مايو ١٩٣٥ .

وعاش فى هذا الجو الجديد ، فلما عاد من أوربا ، ونشأت الأحزاب ، كانت « السياسة » هى مدرسة التجديد التى جمعت طه وهيكل وعزمى وعبد الرازق .

وكان لونها الواضح وثقافتها الظاهرة ، الفرنسية فى أبرز معالمها ، وكان منهاجا مخالفا لمنهاج المدرسة الاخرى التى أطلقت على نفسها المذهب الجديد والتى كانت أشد ثورة وهدما ، وأكثر اتصالا بالثقافة الانجليزية ، وأكثر حربا لحافظ وشوقى وهى مدرسة « الديوان » وعلى راسها العقاد والمازنى وشكرى .

ولكن هل كان طريق المدرسة الحديثة واضحا ؟ ... وان كان كذلك فماذا يعنى هيكل حين كتب فى مقدمة ثورة الادب (١) ... «ومهما يكن من أمر فان ثورة التجديد فى الأدب قد ظفرت بالقديم وجرت الى ناحيتها حراس حصونه ، حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها ، ولكن ما أنفق من الجهود التى هيأت للفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أين نذهب وماذا اليه من جديد نقصد ؟ ...» .

والحق أن هذا التساؤل له معناه ، وانت حين تدرس طه وهيكل والعقاد والمازنى تستطيع أن تعرف فى يسر أن هدف هذه المدارس الجديدة انما كان نقل الانتاج الغربى الينا بصورة أو بأخرى ، وتأتى الاجابة الواضحة على سؤال هيكل بعد فترة طويلة من حياة هؤلاء الكتاب.. بعد أكثر من عشرين عاما .. عندما يبدأ طه فى كتابة « هامش السيرة ودعاء الكروان » وهيكل فى كتابة « حياة محمد » والعقاد فى كتابة « العبقريات » .

لم يغير هيكل لونه السياسى ، منذ بدء حياته الفكرية والسياسية مع الأحرار الدستوريين حتى رأس هذا الحزب وانصرف عن الأدب كلية ، وارتبط طه وهيكل فترة من الزمن فى ميدان «السياسة»ارتباطا قويا كان له أثره فى النهضة الادبية ، فكم من مساجلات دارت بين الكاتبين حول مؤلفاتهما كان أبرزها نقد طه حسين لكتاب « جان جاك روسو » وخطاب « من هيكل الى طه » عندما أصدر « ثورة الأدب ».

ومن هذين الخطابين يمكن للباحث أن يرسم صورة واضحة لمدرسة « السياسة » ولا يعدو الحق أو يبعد عن الواقع اذا قال : انها كانت أصرح

---

(١) صدر عام ١٩٣٣ .

المدارس الأدبية واجراها فى النقد ، حتى ان كاتبا من كتاب السياسة ينقد رئيس تحريرها فى صحيفته ، على هذه الصورة ..

« يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقاد ، مسرفا فى ازدراء القراء وغاليا فى الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل .

لا أعرف كتابا علميا أو أدبيا أراد! طبعا من كتاب الدكتور هيكل بل لاأعرف كتابا علميا أو أدبيا بلغ فيه الاهمال والفتور ما بلغاه فى كتاب هيكل ... طبع ردىء مفعم بالاغلاط المنكرة وورق ردىء يصرف القارىء عن أن ينظر فى الكتاب » .

ثم يصف طه هذه الجراة من نفسه فيقول :

« ما رأيك فى محرر السياسة الأدبى يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير السياسة ثم لايستحى أن ينشر هذا النقد العنيف فى جريدة السياسة ... اليس هذا اسرافا أو شيئا فوق الاسراف ؟

كلا ليس اسرافا وانما هو القصد كل القصد ، والاعتدال كل الاعتدال فهيكل تلميذ لطفى السيد ، ولقد اذكر أن لطفى السيد علمنا حين كان مدير الجريدة أن ننقد أصحاب الصحف فى صحفهم ، وعودنا أن ننشر نقدنا راضيا به مبتهجا له ، ونحن قوم يحب بعضنا بعضا ، ولكنا نتحاب فى الحق والعلم والأدب وحرية الرأى قبل كل شىء ..

استغفر الله بل لو علمت ان فى هذا النقد ما يغضب صاحبى أو يغيظه لنشرته ولضحيت بصحبة هيكل فى سبيل ما اعتقد انه حق ..

وفى الواقع انه مما يحمد لهيكل ان يتقبل هذا وان يرضى به ، بل انه ليذهب الى ابعد من ذلك حين ينشر كتاب ثورة الأدب ويتناوله طه بالنقد .. ما يلبث ان يقول له « .. وهذا البحث الذى يشعرنى بمالك من أثر فى مجهودى وانتاجى يجعلك صاحب فضل كبير » .

ثم يمضى هيكل فيسجل صفحة مشرقة من الانصاف فيقول : (..ولستاخفيك انى مدين فى حياتى ككاتب لأشخاص كثيرين شجعونى وآزرونى ، ولكنك كنت وما تزال ياصديقى فى مقدمتهم ، كنت وما تزال كذلك حين القاك واتحدث اليك ، وحين أقرؤك وأستمتع بجمال ماتكتب وعظيم لذته ، وحين أفكر فيك وفيما أثرت فى الادب وفى تاريخ الادب من تاثرات لما تهدأ ، والحق انه اذا كانت ثورة الادب مدينة فى العهد

الاخير لعدد غير قليل من الكتاب والادباء فهى مدينة لك بأعنف مافيها ، مدينة لك بأشد مافيها طرافة) .

واذا كان لنا أن نتساءل عن هـــذه الصداقة الادبية الضخمة أين ذهبت .... فاننا نستطيع أن نتلقى اجابتنا من السياسة الحزبية .

يقول (جب) ان هيكل (يعمـــل الروية والفطنة فى تدريج الرأى العام المصرى الى مستوى الثقافة الاوربية) وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من وصفه بالاعتدال ، فهو لم يشترك فى معارك أدبية جريئة ، ولم يدخل فى نقد صارم ، الا حين اختلف مع شوقى وكان قد كتب مقدمة للشوقيات عام ١٩٢٥ ، ثم هاجمه عام ١٩٢٧ بمقالات جعل عنوانها (أخلاق شاعر الاخلاق) .

بل ان هيكل كان هادئا فى ميدان الصراع السياسى ، فبينما كانت الصحف الحزبية تدور بالآراء الجريئة كان يكتب فى هدوء فلا تحس أنه يتعصب أو يثير النقد .

وفنه الرئيسى المقالة المطولة ، وله مقالات ذات وهج أذكر منها على سبيل المثـــال (الاجتهـــاد والتقليد) و (أزمة العـــالم : أزمة خلق وعقيدة) (١) .

وبعد فهل نستطيع أن نجد « حياة » الكاتب فى أدبه ، أو هل تتيح لنا آثاره أن ندرس نفسيته وشخصيته ...؟

ما أظن أن ذلك يسير فلم يكن هيكل حريصا على أن يجلو هـــذا الجانب اذا استثنينا الجانب السياسى من حياته الذى كشف عنه فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » . نعم نحن لا نستطيع أن نعرف الشىء الكثير عن نفسية « هيكل » وحياته ... غير ان الدلائل كلها تقطع بأنه ينطوى على « شاعرية » لا شك فيهـــا فهو لم يقف أمام مرآى من مرائى الجمال ، ولا منظر من مناظر الطبيعة فى خلال أسفاره ورحلاته المتعددة الى أوربا الى وصفه فى قوة وأفاض فى تصويره... ورسم صورة واضحة لأحاسيسه ومشاعره ازاءه .

سافر هيكل الى أوربا فى مطلع شبابه ، ثم سافر مرات متعددة بعد ذلك عندما قضى ابنه ممدوح ، وغشيت حياته الزوجية غاشية ، فأراد أن

---

(١) السياسة — ابريل ١٩٢٤ .

يدفع عوامل الألم والحزن التى فرضت نفسها على حياته بتلك الرحلات التى قام بها صيف ثلاثة أعوام متتالية مع زوجه الى عوالم الشرق والغرب.

... ووفاة ممدوح ، حادث بعيد الأثر فى حياة الدكتور هيكل وفى حياة الأدب ، فقد أصاب نفس والده بذلك اللون الحزين الذى صوره فى مقدمة كتاب « ولدى » الذى كان ثمرة من ثماره ... وفى تاريخ الأدب المعاصر ، صورتان أخريان لولدين احداهما للزيات والاخرى لمحمود تيمور .. وسافر هيكل مرات الى لبنان وسوريا والحجاز والسودان ...

وارتبطت رحلاته هذه كلها بآثار فى الادب والرحلة .. كان أبرازها « منزل الوحى » الذى جاء اثر اتصال هيكل بسيرة الرسول والتراث الاسلامى ، وحين أراد أن يمشى فى أثر الرسول ويشهد أماكن الغزوات والمواقع .

ولا شك أن «الاعتدال» الذى يبدو واضحا فىانتاج الكاتب وحياته الفكرية هو صدى لاعتدال فى محيط النفس والاسرة والحياة الخاصة ... فهو زوج منذ صدر حياته ، وقد مضى فى حياته على طبيعته ، يقرأ ويكتب وينشىء دون ما ارتطام أو اضطراب ...

ويبدو أن ماوصل اليه الكاتب من التبريز والشهرة ، يرجع الى عاملين هما طبيعته الخاصة واستعداده ، وطبيعة الوضع الذى أوجده فيه اتجاهه السياسى .

ويبدو هيكل فى حياته الخاصة رجلا ليست له بدوات ، من ذلك الصنف الذى يغلب الاتجاه العقلى عنده على اللون الوجدانى ...

أما فيما يتعلق بصلته بالمرأة ... فيبدو أن هيكل قد أحب فى فجر شبابه وكان ثمرة حبه هذا قصة « زينب » . ثم لا تبدو المرأة فى انتاجه الا على فترات متباعدة ... وفى صورة غامضة غير واضحة . هل كان له حب عظيم فى باريس ... ؟

ذلك ما نشك فيه ... فلم يرد فى آثاره ما يدل على ذلك ، وانما يبدو أنه كانت هناك رؤى .... كان لها أثرها فى الالهام ...

« عرفت (١) بباريس فى ربيع ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالمنزل الذى كنت فيه ، وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرته وأمها الى ألمانيا

---

(١) ثورة الادب .

فى رحلة من هاته الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة ، وكنا أهل المنزل جميعا نقضى ما بعد العشاء فى صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة المنزل لنا بعض قطع على البيانو اذ كانت تجيد هذا العزف الى حد البراعة فيه ، وقد وثقت هذه السويعات بينى وبين الفتاة الكندية اذ كنت أقدر الحاضرين على التحدث اليها بالانجليزية لأنها لا تجيد الفرنسية ، وكنت يومئذ اكتب « زينب » وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار ، أوهام طويلة عريضة ، فلما كانت الليلة التى اعتزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى . فقالت :

« كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والترسكوت بتاريخ انجلترا ، اننى وان لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئا كثيرا جميلا ، وان تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنها وتقريبها للناس فى الصورة القصصية المحببة للنفس ، ولعلك ان فعلت تجعل اهداء أولى هذه الروايات التاريخية الى » .

... هذه المرأةالملهمة لهيكل ... لاتعطى صورة وجدانية واضحة، بقدر ما تعطى صورة عقلية محدودة ...

ومرة أخرى ... تحدث هيكل عن المرأة وأثرها فى الالهام(١) .

« ... لو أننى حاولت استقصاء نواحى الضعف فى الهام المرأة الفن لطال الحديث ...

واجب المرأة فى الهام الفن فرض محتوم عليها ، لأن الطبيعة لا تستطيع أن تقوم بهذا الالهام وحدها على الوجه الاكمل ، واشتراك المرأة والطبيعة فى هذا الالهام هو الكفيل بكمال الفن » .

... وليس كاتب أو شاعر أو مصور أو مثال أو موسيقار ، لا يحدثك عن حظ من الالهام ــ قل أو كثر ــ كان لامرأة فيه نصيب هو الذى أوحى اليه بخير ماله من الفن وقد يصدر هذا الالهام عن تمليق تلك المرأة لرب الفن أو عن دلها عليه أو صدها عنه أو تعذيبها اياه .

وقد يصدر عن اشتراك فى الفكرة الفنية التى يموج بها خاطره

---

(١) السياسة الاسبوعية ــ ٢٦ من مايو ١٩٢٤ .

فتغذى الشرارة التى تلهب شعلة الفن المقدسة فى نفس رب الفن فيضىء جوانب روحه فيندفع الى وضع الاثر الفنى ممثلا به فؤاده ٠

أليس بين سيداتنا المستنيرات من تشعر بهذا الواجب ، أو تحس فى نفسها موهبة الايحاء لرب الفن موهبة لا يستطيع مغالبتها ، فما بالهن اذن ينصرفن عن القيام بهذا الواجب المقدس ولا يقتضيهن شيئا يخالف طبيعتهن النسوية الرقيقة التى صاغها الله فنا جميلا !! »

ولا يستطيع هذا القول الا أن يعطينا صورة واضحة لنفس هيكل وهى تحس بالحرمان من أثر المرأة فى الهام الفن والادب ٠

وبعد فقد كان الادب أبرز مظـــاهر حياة « هيكل » وقد ترك فيه آثارا باقية ، هى جزء من الادب العربى المعاصر ، لا شك فى جودته وقوته، وان كان قد انصرف بعد عن الادب الى الحياة التى أحبها وأوغل فيها ــ حياة السياسة والقانون ــ وضرب فيها بسهم وافر ، فان مراحــل حياة « هيكل » بدت متشابكة مترابطة وهى فى مجموعها صورة واضحة لحياة مفكر ٠



محمد فريد أبو حديد

اقرأ أى كتاب من كتبه ، أو استعرض ان شئت أسماء مؤلفاته ، فانك سرعان ما تضع يدك على مفتاح شخصيته وتعرف سر نفسه ٠٠٠

اقرأ « زينوبيـا » أو « الملك الضليل » أو « أبو الفوارس عنترة » أو « آلام جحا » أو « سيف بن ذى يزن » ، تجد نفسك أمام شخصية هذا الكاتب الشاعر القصصى ٠٠٠ الشغوف بأن يعيش مع التاريخ البعيد ، مع الشخصيات المجهولة التى أضفت عليها الأساطير والقصص والخرافات جوا من الغموض ، فعاشت بين السحب والغيوم ، عاشت ملفعة بالحجب والضباب ٠

انها القصص ، من حيوات أمثـال زينوبيا ، أو امرىء القيس أو جحا ، والتى ليست فى مصدرها وفى أصلها الا سطورا معدودة من كلام مدفون فى بطون الكتب القديمة واذا بالكاتب يأخذ ويضفى عليهـا من ثقافته وخياله وفنه مايكسوها بشرا سويا ، ويبعث فيها حياة جديدة ، ويخلق حولها جوا لاتشك لحظة وأنت تقرأها أنه قريب من الجو الذى كانت تعيش فيه هذه الشخصيات ٠

وليس أمامنا لكى ندرس شخصية « فريد أبو حديد » الا مؤلفاته هذه بالاضافة الى كتابه « عمر مكرم » ٠

انه من الـكتاب الذين لا يتحدثون عن أنفسهم ، ولا تبدو معـالم حياتهم واضحة فى كتاباتهم ، وان هناك هالة من الغموض تحيط بنا من كل جانب ونحن ندرس هذه الشخصية ٠

كثير من الكتاب هم كذلك ، لا تعطيـك آثارهم صورتهم النفسية واضحة ، لا سيما أولئـك الذين لا يتصلون بالصـحافة اتصالا دائمـا مستمرا ، فان هؤلاء يظلون فى حدود حياتهم الادبية الخالصة التى يعكفون فيها على الانتاج الادبى المحرر ، لايعطون الباحث تلك المادة التى تعينه على الكشف عن حياتهم الوجدانية فى يسر ٠

وكتاب كزينوبيا أو الوعاء المرمرى ، ماذا يمكن أن يعطيك عن كاتبه الا صورة عقلية محضة ، هو أنه أديب شغوف بهـذا اللون من الأدب ،

محب للايغال فى أعمـاق التاريخ والماضى ، والذهاب بعيدا بعيدا الى أعماق الجزيرة العربية ، والى الشخصيات البعيدة الغامضة ، هذه نفس شاعرة، تندفع وراء الغوامض من أجزاء التاريخ لتحاول أن تعيش فيها وتجد فيها وتجد لذتها فى أن تبحث وراءها وتدرس كل ما يتصل بها ٠

ولكن مهلا ، فان دراسة مثل هذه الشخصيات ، ليست أمرا يسيرا هينا وليست من البساطة فى شىء ، ودراسـة مثل دراسة حيـاة جحا أو سيف بن ذى يزن أو الملك الضليل تتطلب دراسـة تاريخيـة ضخمة لعصره ، والحياة فى عهده ، والتقاليد والملابس والمجتمع والناس فى خلال هذه الفترات ، حتى يمكن أن يتم بناء هذه الصورة على أسـاس صادق من الواقع ٠ فاذا توافرت هـذه الأسس ، جاء الفن الأدبى نفسـه فوضع الصورة الكاملة الواضحة ، للشخصية النابضة بالحياة ، والذاهبـة الى مداها فى الحركة والحياة ٠

وفريد أبو حديد حريص على أن يطوى شخصيته عن القراء ، وأن يطوى حياته الخاصة عن الناس فلا يدعها اليهم ، وهو يقول فى أحـد أبحاثه (١) « ليغفر لى القارىء أن أحدث ، عن نفسى على كراهية فى طبعى للتحدث عن النفس » ٠

وهو لا يريد أن يقول لنا الا أنه أحب ذلك التراث العربى الزاخر من التاريخ ، وملك عليه نفسه منذ تعلق بالادب ، فاستغرق وقته ووقف عليه اهتمامه ٠

« كان التاريخ يبدو لى اذا قرأته غير تلك السير التى يقرؤها الناس عادة ليستخرجوا منها علما أو عظة ، كنت أقرأ التاريخ ، فاذا بى أحيـا مع من أقرأ سيرتهم ، وأعاشر أهل العصور الغابرة كأنما أنا من بعضهم ، أكاد أشعر بأنفاسهم وأحس باحساسهم ، وأهتز لما يهزهم ، وأغضب لما يغضبون له ، وأسر لما يسرهم ، وأتألم معهم فى محنتهم،وكنت اذا قرأت فى كتب الأدب أشعر بنشوة عجيبة لما فيها من آيات تسطع فى الذهن كما يسطع النور على صفحات الجوهر الصافى ، وكنت أرى دائما أن تلك الكنوز أثمن من أن تبقى فى مخابئها ، وأن تلك العصور أكرم وأنبى من أن تبقى طريحة فى سجل الزمن الذى انطوى وما أكثر ماكان لتلك السير من آثار فى نفسى وعقلى » ٠

فأديبنا محب للتـاريخ ، كلف به ، صرف فى دراسـته ومطالعته

---

(١) مقدمة قصة « زينوبيا » ٠

شبابه كله ، واستهوته الشخصيات القوية الأثر فى التاريخ ، ومن ذا الذى ينسى أنه أنصف « عمر مكرم » فى وقت كانت كتابة تاريخه على وجه من الانصاف لا ترضى الحاكمين ، غير أن هذا الاتجاه لم يطل أمره ، اذ تحول سريعا الى الفن الذى يملأ عليه قلبه ، تلك الصورة التى تتصل بالأساطير والقصص الغامض « وددت لو تأتينى القوة ويطاوعنى الطبع على أن أبلغ ما تصبو اليه نفسى فأخرج للناس صورة الحياة التى يمتلىء بها قلبى فى ثوب مختلس من تلك الكنوز الثمينة فأكون كالصائغ اذا استعار رسما قديما فأبرزه فى حلية جديدة يرفرف عليها روح القديم فوق هيكل حى جديد » ٠

غير أن هذا الاتجاه الذى استقر عليه كاتبنا بعد أن ارتفعت به السن ، وجعله مذهبه الأدبى ، ولونه الواضح الصريح ، يمكن أن يردنا الى صباه ويلقى ضوءا على ماضيه فندرس شخصيته فى وضوح ٠

هذا الاغراق فى قصص حرب البسوس وسيف بن ذى يزن وامرىء القيس والزباء وعنترة يرسم صورة الكلف الواضح فى الشباب الى ذلك الشاعر الذى كان يجلس فى المقاهى فى العهد الماضى فيروى قصص هذه الحروب ٠

كان « فريد » معجبا بهذا اللون من الرواة ، وكان فيما يبدو يتعقب هؤلاء من مكان الى مكان ، ومن مقهى الى مقهى ، ليسمع وليطيل السماع ، وليقضى الليالى مرهفا سمعه وحسه الى هذا الفيض من القصص ثم اذا به ينكفىء بعد ذلك الى كتب التاريخ ليقرأ ويقرأ ٠

وهو لا يلبث أن يحدثنا عن هذا الاتجاه حيث يقول «٠٠٠(١)وبلغنا ميدان الحسينية قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعا والبدر الباهر يتوسط السماء الصافية والانوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمنتديات الشعبية التى تحف بالميدان ٠

ولاحت لنا حلقة فى منتدى كان قائما عند مدخل الطريق الضيق المؤدى الى المدينة ، وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الحاشد قصته ، وكان فى رنين انشاده من بعيد ما يوائم نبضات قلوبنا المضطربة ٠

وكان الشاعر شيخا لا أذكر أن عينى وقعت على مثل صورته ، كان

---

(١) قصة الوفاء المرمرى ٠

نحيفا معروق الوجه له لحية خفيفة وخطها الشيب، ولكن عينيه الكليلتين كانتا تنبضان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر بشجن دفين ، وكان يلبس عمامة بيضاء ذات عدبة تضطرب على كتفه اذا تحمس فى انشاده بصوت متهدج تنم نبراته عن حركة نفسه وحرارة وجدانه ، وكانت ربابته تصاحب انشاده بلحن عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حينا ويخفت حينا ويرق فى مواضع ويعنف فى أخرى ·

« ··· منذ تلك الليلة صرنا من قصاد ذلك المنتدى البلدى نذهب اليهاذا اجتمعنا أو وحدنا اذا لم ندبر اجتماعا حتى أصبح لنا بعد قليل ملتقى مختارا » ·

··· ثم يصف « فريد » اثر هذه النشوة فى نفوس الشباب ··· وفى الكفاح من أجل الحرية « ··· كنا نجتمع هناك كل ليلة فى المنتدى ندبر مع أصحابنا خطط الجهاد فى سبيل الحرية · وكان لهذه الصداقة الجديدة أثرها العظيمعندما شبت الثورةالكبرى فى مارس من ذلك العام· و ··· لا ينكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة (يقصد الشاعر) كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع فى ضمير الغيب » ·

وتستطيع هذه العبارات أن تعطينا صورة لنفس «فريد أبو حديد» فهو محب للبطولة ، مغرم بها ، وقد ترصد لها فى القصص ، كما اتصل بها فى الحياة فشارك فى ثورة ١٩١٩، وقرأ حيوات الابطال العرب الذين استفاضت بالحرب والكفاح والدماء والبطولات ·

وهو مغرم بالاقطاب الذين تركوا فى أوطانهم وفى التاريخ آثار ما تزال برغم مرور الزمن قوية واضحة ، لا يمكن نسيانها أو تجاهلها ، بل هى ما زالت حتى الآن تبعث فى النفس الشوق الى التضحية والكفاح ···

وأنت تلمح من صفحات آثاره الصرامة والوضوح والرغبة الى أن يكون صريحا جريئا ، تفيض نفسه بالحق ، كأنما هو من أولئك الذين يكرهون المداورات والمناورات ويبغضون أساليب السياسة مما يطلقون عليه اللباقة أو تجميل الألفاظ ، أو ما يطلقون عليه اسم الأسلوب الذى يجرح ولا يسيل الدماء فهو على طبيعته واضح صريح ، صارم حاد ، لا يعرف ميلا ولا زيغا ، ولا يرى فى الحق مجاملة ، انما يقول كل شىء ويمضى ···

ويأتى هذا متسقا مع حبه للبطولة واعجابه بها ، وهى طبيعة

الفرســان ورجال الوغى الذين عاش معهم فهــم لا يعرفون تلك الألوان الرقيقة اللينة ولا تلك الاساليب التى توصف بآداب الصالونات ٠٠٠٠ ولعل مرجع هذا فيما نعتقــد تلك الحياة الريفيــة البدوية التى عاشــها الكاتب فى فجر حياته ٠

« فريد أبو حديد » واحد من هؤلاء الرواد الــذين بدءوا حيــاتهم الأدبيــة مع ثورة ١٩١٩ أو قبلهــا بقليل ، تأثر فى فجر شــبابه بالأدب الانجليزى وأوغل فيــه فقرأ لــكتاب القرن التــاسع عشر من مارلو الى والترسكوت الى دكنز، وأحب شكسبير وتأثر كثيرا بكنت فى عمل القصة التاريخية ٠

واشترك فىتحرير السفور وكتبفى السياسة الاسبوعية تابلوهات قصيرة لعلها كانت أول اتجاهه القصصى ٠

ومضى « فريد » على طبيعته هادئا متئــدا ، لايتصل بالصحافة ولا يشارك فى السياسة ، ويخلص لفنه وأدبه ، وتركت قراءته «لآلام فرتر» أثرا يختلف عما تركت فى نفس الزيات من آثر فقــد كره هذا الضعف والتخاذل ، فأنشأ قصته « مذكرات المرحوم محمد » سنة ١٩١٣ ٠

وابتدع « فريد أبو حديد » الشعر المرسل ، حين ترجم أجزاء من قصة أنطونيو وكليوباتره بهذا الاسلوب ، ثم ترجم سهراب رستم ومضى فى اتجاهه هــذا فكتب بهذه الطريقة قصــة عثمان بن عفــان ، وخسرو وشيرين ٠

وظل فريد أبو حديد تتنازعه طبيعتان مختلفتان وان كانتا قريبتين ٠٠٠ هما طبيعة المؤرخ وطبيعة القصاص ، كان قرأ كل أمهات الــكتب التاريخية ولمح فيهاصورا غاية فى الروعة والقوة لوأنها كتبت علىالطريقة الحديثة ، ولو أدخل اليها فن من فن والترسكوت وشكسبير ٠

لقد كانت « ربابة الشاعر » الكامنة فى أعماق « فريد أبو حديد » تصارع فيه « المؤرخ » ٠٠٠ وأخيرا غلبت عليه طبيعته فأخرج تلك الآثار الرائعة التى تقدم نفسها للخلود ٠

« الملك الضليل–زينوبيا–الوعاء المرمرى–المهلهل سيد ربيعة » ٠

فاذا ذهبنا نستقصى صلة أدب الكاتب بشخصيته ، وجدناه وثيقا قويا ، فهو من ذوى الطبائع النقية الصريحة ، يبدو هــكذا حين تتحدث معه ، وحين تقرأ له ٠

فى نفسه ذلك الاحساس الحاد المتدفق بالوطنيـة الذى صوره فى قصته الوعاء المرمرى ، وفى كتابه عمر مكرم الذى ألفه بعد معاهدة ١٩٣٦، وفى كتابه عن ثورة ٢٣ يوليو « أنا الشعب » .

فاذا ذهبنا نستشف شخصيته وجدناها واضـحة فى بطل قصة أزهار الشوك « فؤاد » الشاب المحب للريف ، الكلف بجماله وأصباحه وأمسائه وأصائله المتفتح القلب ، الجياش العاطفة يصف أباه معجبا به « ... وكان كلما وقف هناك خطرت له خطرات من ريف النجيلة ، ومن أيامه فيها وأماسيه فى أشهر الصيف ، ثم تتمثل له صورة من هناك... وكل هؤلاء الذين ملأوا عليه الحياة فى تلك الشهور ، ثم تتمثل له صورة أبيه محلقة فوق هذا الخلق كله كما يحلق النسر فوق قمم الجبال ، لقد عرف أباه قبل ذلك الصيف ، ولكنه عرفه فى تلك الشهور كما لم يعرفه من قبل ، ففتح عينيه آخر الامر فرآه رجلا وانسانا كان يعيش فى ريف النجيلة البعيد أمة وحده وسط أمة أخرى يعرف أنه غريب عنها . ولكنه كان يمد يده اليها كما يمد السابح الماهر يده الى الغريق الذى يكافح الموج الى جانبه (١) » ...

ويبدو فهم « فريد أبو حديد » للحياة على هذه الصورة الواضحة القوية « ... رأى يوما فى بعض وقفاته عودا ضئيلا تتقاذفه الامواج على سطح الماء تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به الى اليمين تارة ثم تلقيه الى اليسار ، ثم اذا دوامة شديدة تجذب العود اليها فتدور به لحظة ثم تبعث به الى الاعماق .

وكان هذا المنظر يشبه وحيا هبط عليه ، فبدا له أن «البشر ليسوا فى الوجود سوى هنة مثل ذلك العود الضئيل ، والقضاء يقذف بهم حيث يريد ، فهم يأتون الى الحياة بغير أن يريدوا حياة ، وهم يمضون فيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ، فاذا حان ذهابهم عنهـا ذهبوا كما جاءوا اليها قسرا وأمرا بغير أن يكون لهم ارادة » .

ويصور شخصيته فى صورة نقية «... لقد تعود فى حياته بساطة الريف ، فهو لا يميل الى مفاتن المدينة وملاهيها ، ولا يرتاح الى محامعها الصاخبة ولا الى أنوارها التى تكاد تغشى العيون ، كان نور القمر الخافت أحب اليه من أضواء المسارح الوهاجة ، وكانت أنفاس الشاطىء أروح لصدره من جو الأبهاء المزدحمة ، وكانت أغانى « قوية » الساذجة ورقصة

(١) أزهار الشوك .

« تعويضة » الوحشية أدعى الى مسرته من النغمات الناشزة التى تبعثها الموسيقى الصاخبة فى حلقات الرقص الماجنة (١) ·

يقول الاستاذ « فريد أبو حديد » ان أعظم حادث فى مجرى حياته هو دخوله مدرسة المعلمين ، فقد دخلها وهو كاره وكان يحب أن يدرس الحقوق ·· ولذلك لم يلبث أن حصل بعد على اجازة الحقوق وان لم ينصرف عن التدريس وكان ذلك «مفتاح» اتجاهه الادبى الذى رسم حياته الفكرية فى المستقبل ·

ويقول : ان مثله الأعلى فى الحياة أن يعطى ماعنده ، وهو يفضل فى الناس العدالة مع العفو ، ويفضل فى النساء الكرامة مع الرحمة ، وأحب الفضائل اليه عظمة القلب ، وهـو يرى البطولة فى الاستشهاد بماديات الحياة من أجل فكرة، وهو يحب فى الزهور الوردة، وفى الطيور اليمامة، وأفضل هبات الطبيعة عنده القلب الكبير ·

ولـكن الى أى حد يمكن الموائمة بين الصورة وبين الحيـاة نفسها · ذلك ماندعه للتاريخ نفسه ·

(١) المصدر نفسه ·



سلامة موسى

« ٠٠٠ ليس ممايتفق لكل كاتب أن تكون أولىمقالاته وباكرة حياته الأدبية عن فلسفة ثائرة هائجة مثـل فلسفة نيتشه ، ولـكن هكذا قضى القضاء أن أكتبأول ما أكتب فى حياتى ، وأنا فتى لم أبلغالعشرين ، مقالاقى المقتطف ١٩٠٨ عنوانه « نيتشه وابن الانسان » ولشد ما كان اغتباطى عندما رأيت الدكتور صروف يعلق على المقال فى العدد التالى بالاستغراب لهذه الفلسفة الجديدة التى تنقض بلا حياء ولا مواربة الاخلاق المسيحية والفضائل الشائعة ، وانى أرجع الآن بالذاكرة الى هذا المقال فأجد فيـه رمزا لهـذا المركز الذى أتبوؤه الآن بين الرجعيين حيث أقف منهم موقف الهادم لما تصدع منالعقائد الممزق لما بلى وتهتك من العادات والشرائع »٠

هكذا بدأ سلامة موسى حياته كما صورها بقلمه ، الكاتب الثـائر المتمرد الذى مازال حربا على قديم اللغة والتاريخ والاديان والشرق ٠

وسلامة موسى من الكتاب الذين لايؤمنون بالغرب ايمانا كاملا ، كل ما فى الغرب من خير وشر ، ومن هوى وضـلال ، وهـو يرى أن الشرق لا يمكن أن يصل الى المكانة المرموقة الا اذا « استغرب » استغرابا كاملا ٠

وسلامة موسى هو أشد كتاب مصر تطرفا فى الرأى ، حتى اتهم فى وقت من الاوقات بأنه يروج رأى الملاحدة والمتحللين ودعاة المـذاهب المتطرفة ٠

ولكن هناك جوانب تشرف سلامة موسى وتكتب له فى تاريخ الأدب المعاصر صفحات مشرقة تلك هى ترجمته لنظرية التطور والتفسير المادى للتاريخ ، ونظرية السيكولوجية الحديثة بين فرويد وادلر ويونج ٠٠٠ فقد نقل هذه العلوم الى العربية فى أسلوب واضح دقيق ، لم يصل اليه غيره من المشتغلين بهذه العلوم والدراسات ٠

يقول المستشرق (١) جب ٠٠٠ « على أن الجناح الايسر المتطرف من المجـددين المصريين قوامه فريق أكثره من المسيحيين المصريين وأبرزهم سلامة موسى ، محرر الهلال السهرى ٠

(١) تقرير جب عام ١٩٢٩ ٠

وقد ظهر سلامة موسى فى اول الامر بكتابه فى الدفاع عن نظريتى التطور والاشتراكية اللتين درسهما أثناء اقامته بانجلترا ٠

وهو يؤثر بحبه برنارد شو وولز ، وهو مثلهما يتكلم بلا خوف بل يستثير سخط الناس بمواضيع لا يتناولها أشد المجددين تطرفا الا بحذر ٠

ولعل خير مثال لذلك مقالته عن التوحيد التى يرده فيها الى أصل طبيعى ، وموقفه حيال الأدب العربى والأسلوب الأدبى فيه جرأة ونشاط، وهو يرى فى كل من الأدب القديم والحديث نقصا فى المعرفة الصحيحة ، وفى الاتصال بحقائق الحياة ٠

ولكنه مع تميزه عن زملائه بتطرف آرائه ، يتوخى فى كتابته الرنة العربية المألوفة ٠ وهو يشبه سلفه جورجى زيدان فى أسلوبه العلمى أكثر مما هو أدبى ، ولكنه لا يمكن أن يقال انه خير خلف لزيدان فى أحوال مصر الجديدة ٠٠٠ »

لقد كان للانقلاب التركى — عام ١٩٢٤ — أثره فى نفس سلامة موسى فجعله مادة للكلام عن القبعة والطربوش ٠٠ وعن الغاء مادة الدين فى المدارس وعن الكتابة بالعامية وعن العودة الى الفرعونية ٠

وكان لاثارة كل قضية من هذه القضايا صدى ودوى ، وقد جرى السجال فيها بين المجددين والمحافظين طويلا ٠

يقول فى مقال له بالهلال — نوفمبر ١٩٢٢ — « ليس هناك حد يجب أن نقف عنده فى اقتباسنا من الحضارة الأوربية ، يجب أن نفزع نحو أوربا ، ونفتح أبوابنا على مصراعيها للحضارة الاوربية ، وننقل مبادىء الديمقراطية والبرلمانية والاشتراكية ، وهى مبادىء لم تعرفها آسيا أيام الاستبداد الأتوقراطى فى الحكومة والدين والادب والعلم ٠

ومن واجب كتاب الصحف والمجلات أن يؤسسوا نوعا من الرقابة النيرة لمنع الرجعيين ذوى الثقافة الآسيوية من نشر آرائهم فى صحفهم أو طبعها للجمهور فلا ينبغى مثلا لصاحب المجلة أو الجريدة أن ينشر دفاعا عن الحجاب أو مايشابه ذلك ٠٠٠ »

وهو جرىء فى آرائه عن الحضارة «٠٠٠ يجب أن نذكر أن الحضارة العصرية هى حضارة الصناعة ، ويجب أن نذكر أن أوربا تختلف عن الأمم الشرقية بالصناعة وترتقى عليها بها وليس هناك سبب آخر لارتقائها وتفوقها علينا ، وكل ما يقال عن روحية الشرق ومادية الغرب هو لباب

البلاهة وخرافات الرجعيين أعداء النور والرقى » فاذا تحدث عن الشرق كان رأيه غاية فى الظلم «٠٠٠ كلما ازددت معرفة بالشرق ازددت كراهية له ، وشعرت أنه غريب بالنسبة لى وكلما ازددت معرفة بالغرب ، كلما ازددت حباله واقترابا منه وأحسست بأنه يمت الى وأنا أمت اليه ٠٠٠ »

ســافر الى أوربا عام ١٩٠٨ وعاد ١٩١٣ وأمضى هــذه الفترة بين باريس ولنــدن ، وغلب الادب الانجليزى فى نفسه على الفرنسى اذ رآه متفقا مع طبعه ٠٠٠

«ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح ولغة الادب الحر ومع أن باريس بؤرة الآداب الاوربية بل مشعلة الثقافة التى تعشو الى ضوئهــا عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر ، فانى لاتجاهى العلمى وحديثى فى مستقبل أيامى أميــل الى قراءة الكتب الانجليزية ، وأوثرها على الفرنسية لأن الانجليزية تعبر عن نزعة علمية تحقيقية كثيرا ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى، ولذلك أعزو تربيتى الثقــافية الى الانجليزية أكثر ممــا أعزوها الى الفرنسية ٠٠٠ »

وفى لنــدن عرف ابسن ونيتشه ، وتأثر كثيرا ببرناردشــو وولز واندرجين وغاندى وكارل ماركس وجيته ودستوفسكى وفولتير ، ولما عاد الى مصر اشتغل بالصحافة وكتب فى الهــلال والبــلاغ وكل شىء وأنشأ المجلة الجديدة سنة ١٩٢٩ ٠

وهو يرى « أن المؤلف بالمقارنة الى الصــــحفى يعد ناسكا ، فان المؤلف ينزوى فى غرفتــه باحثا منقبا ، ولــكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع ، ومع أن أكثر جهودى فى الصحافة كان ثقافيا فى بحث العلوم والآداب فانى مسست السياسة أيضا ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات ٠٠٠ »

فاذا أردنا أن نعرف شيئا عن حياة سلامة موسى الوجدانية لم نجد فى مؤلفاته ولا فى كتابه «تربية سلامة موسى» ما يهدينا الى هذا الهدف ، وحياته فى أوربا فى الأغلب لم تترك عنده أثرا وجدانيــا واضحا الا فى حدود عباراته ٠

«٠٠٠ كانت شهواتى الملتهمة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية ، كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجدانى الاجتمــاعى ، بل

كذلك كانت حرية المرأة فى أوربا الغربية ، فان هذه الحرية كانت لهبا يلسعنى ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت المرأة المصرية ..

والى هذه السنوات والى هـذا الوجدان تعود ثورتى بعـد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبرا عليها » .

وهو يرى أن العزوبة تخدم الادب أكثر مما يخدمه الزواج يقول « فى هذا العصر(١) الذى نعيش فيه حيث تتغير الأوزان والقيم الاجتماعية يحتـاج الاديب الى الحرية حتى يفـكر مخلصا ويكتب مخلصا ، فان كان أعزب استطاع ذلك، أما اذا كان متزوجا فانه يلتزم الصمت حيث يحسن النطق ويرضى بالقيود حين يحتاج الى الحرية ويمتدح التقاليد التى يدرك مدى خطرها » .

ولا تعطينا آثاره ما يمـكننا من معرفة هـذا الجانب الوجدانى فى حياته وهو لم يتحدث عن الحب فى الحياة الا على طريقته العلمية الخالصة.

يقول « الواقع أن الحياة أكبر من الحب ، وان الانسان يستطيع أن يرصد حياته لعمل عظيم يستغرق كل عقـله وكل مجهوده ، كأن يتوخى تحقيق مذهب أو اختراع آلة أو توجيه شعب .

ولكن الحب هو السعادة أو أقرب الى السعادة، وفيه تتبلور أخلاقنا وتبدو فى جوهرها الأصـيل ، وهو يربينا ويستنبط منـا أسمى ما فى أخلاقنا » .

ولكنه يبدو مستقيم الرأى حين يتناول حب العاطفة وحب الجنس فيقول « هناك خطأ شـائع هو أن الحب بين محبين انما يرجع الى الغريزة الجنسية لا أكثر ، وهذا التباس يحتاج الى بعض التحليل ، فان الاشتهاء يرافق الحب ولكنه ليس أصله ، بل يحدث أحيانا أننا عندما نحب امرأة حبا عظيما فاننا نرفعها الى مرتبة من الطهارة ونسمو بجمالهـا الى معان من القداسة بحيث تتقهقر الغريزة أمام هذه الاعتبارات ..

ولكن الحب ينتمى الى أصل آخر هو ذلك التعلق الذى نما فى طفولتنا وربطنا بالأم ، وهذا يجعل فى الحب حنانا ورقة ورحمة، ونحن حين نحب امرأة انما فى الواقع نحب صورة الأم فى وجهها وقامتها وصوتها ، لأننا قد نشأنا على أن نكبر من شأن الصفات التى تتحلى بها أمهاتنا » .

ويمكن القول بأن سلامة موسى انجليزى الثقافة ، تلغرافى الاسلوب

(١) كتب هذا سنة ١٩٤٢ .

عالم النزعة ، وقد استطاع فى خلال هـذه الحقبـة الطويلة أن ينقل الى العربية عشرات من الآراء والأفكار والمذاهب الحـديثة ، كان فى مقدمتها دعوته الى الاشتراكية وقد بسطها فى الصحف وقربها الى أذهان المثقفين والمتوسطين ·

ولكنه شغف بكتابة القصة القصيرة فى السنوات الأخيرة مع أنه لم يعالجها فى شبابه ، ونحا فيها المنحى العلمى الذى يعالج مشاكل المجتمع أو مشاكل الحضارة ·

يقول « كامفماير » عنه « ··· وهو بالرغم مما اشتهر به من دفاعه عن الأسـلوب البرقى وعدائه لتنمق العربيـة الكلاسيكية يكتب غالبـا بأسلوب أنيق لا يخلو من بعض التنميق » ·

وهو يفهم مهمـة الـكاتب وفق مذهبـه العلمى وعلى ضوئه ··· « أسوأ (١) النـاس هو ذلك الـكاتب أو المؤلف الذى ينكب على الورق والحبر والقلم لا يعرف غيرها ، فان شخصيته الانسانية هزيلة ، ذلك أننا يجب أن نكتب لـكى نحيا ونحيـا لـكى نكتب ، واذن يجب أن نختلط بالمجتمع ، ونشـتغل بالسياسة العـالمية ، ونـكافح من أجل المبـادىء الاجتماعية ، ونحب جمـال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقـل ، يجب أن نشتغل بالسوق والبورصة والمصنع والمزرعة ، نسـأل عن نظمها وأجور العمال فيها ومساكنهم وثقافتهم » ·

وبعد فان سلامة موسى حتى فى ارتفاع السن ، كان حاد القلم فوار العاطفة فيما آمن به من آراء · ولعل طبيعته العقلية الخالصة حفظت عليه شبابه بحيث كان دائما منتصب القامة سريع الخطا عنيف الاشتباك فى معارك الأدب أو الاجتماع مؤكدا بذلك أنه كان بحق يسبق الجيل ·

تم الكتاب

---

(١) أخبار اليوم ١٦ - ٨ - ١٩٥٢ ·

فهرس

الموضوع	الصفحة

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قناة السويس – فى مناقصة عامة بين مقاولى القطاع العام والخاص – عملية انشاء مركز طبى بورتوفيق . ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا بمقر الهيئة بالاسماعيلية (قسم المشروعات) نظير مبلغ عشرة جنيهات . وتقدم العطاءات داخل مظروفين مغلقين بالشمع الأحمر ، ويكتب العنوان الخارجى باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس – الادارة الهندسية (قسم المشروعات) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٣ من يونية سنة ١٩٦٤ ويجب أن تكون العطاءات مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ١٠٠٠ جنيه ولن يلتفت الى العطاءات التى ترد بعد الموعد المحدد أو الغير مصحوبة بالتأمين الابتدائى .

الدار القومية للطباعة والنشر